بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 17 مايو 2016

مكانة المرأة في بلاد وادي الرافدين وعصور ما قبل التاريخ

ميادة كيالي
باحثة سورية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

مكانة المرأة في بلاد وادي الرافدين وعصور ما قبل التاريخ[1]

[1]- يمثّل هذا العمل المبحث الأوّل من الفصل الثاني من كتاب ميّادة كيّالي "المرأة والألوهة المؤنّثة"، منشورات مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، 2015

الملخص:

قدّمت ميّادة كيّالي في هذا الفصل نبذة تأليفيّة عن تاريخ حضارة بلاد الرافديْن باعتبارها حاضنةً لأساطير خلق الكون. وقد لاحظت أنّ الدراسات المنجزة عن تلك الحضارة كرّست تفوّق المؤسّسة الأبويّة مقابل تهميش دور المرأة في بناء الحضارة وما نهضت به من أدوار في مجتمعات بلاد الرافديْن. ومن ثَمّ وقفت المؤلّفة على مكانة المرأة في تلك الرقعة الجغرافيّة في عصور ما قبل التاريخ، من قبيل ظهور شكل أوّلي للدين تمثّل في عبادة الإلاهة الأمّ، وهو ما يُقيم الدليل على الحظوة الرفيعة التي كانت تتمتّع بها المرأة وقتئذ. أضف إلى ذلك كلّه، وجود التماثيل الأنثويّة المعبّرة عن وضعيّات للآلهة الأنثى (صلتها بالخصب والولادة وشبهها الكبير بالطبيعة). وكان للمرأة دور حاسم في استقرار الإنسان ونشأة العمران وقيام الحضارة. وأسّس ذلك كلّه لعصر سيطرة الأمّ ولظهور المجتمعات الأموميّة. ثمّ قدّمت المؤلّفة لمحة عن الحضارات السومريّة والبابليّة والآشوريّة. ومثّل هذا العمل بالنسبة إلى المؤلّفة مدخلاً جيّدًا لبيان منزلة المرأة على الأصعدة الاجتماعيّة (تميّزها في مجالات الأدب، الكهانة والموسيقى) والعائليّة (التشريعات الموضوعة لصالحها في مجال الأحوال الشخصيّة من خلال قوننة الزواج مثلاً) والثقافيّة (تخصّص المرأة بمهنة الكتابة وظهور لغة سُمِّيت بلغة النساء) والاقتصاديّة (حضورها في المعاملات الاقتصاديّة واشتغالها بغزل الصوف ونسجه) والسياسيّة (قيادة الدولة وإرساء نظام الإمبراطوريّة). وقد دعّمت ميّادة كيّالي عملها سالف الذكر بعدد من الوثائق والخرائط والصور والجداول والرسوم البيانيّة.

المطلب الأول- مقدمة موجزة عن تاريخ حضارة بلاد الرافدين

لم يكن اختيار بقعة التاريخ الممتدة على طول حضارة وادي الرافدين محض صدفة، فهذه الحضارات كانت الأولى التي أهدت الإنسانية كنزاً من المعلومات عن إنسان تلك العصور وأفكاره ومعارفه وتدينه، لقد كانت حاضنة أساطير الكون التي هيأت الكتابة المسمارية لحفظها على ألواح طينية في مكتبات اعتمد فيها نظام الأرشفة فجمعت سجلات الفكر والمجتمع.

إنّ دراسة حضارة الرافدين ستغني البحث الذي يحاول العودة إلى الجذور ليتتبع الأثر حول دور المرأة عبر السنين الموغلة في القدم، وليستعيد صفحة من صفحاتها غيبتها العديد من الدراسات ليس بسبب نقص في المصادر، كما تنوه لذلك في مقدمة كتابها الباحثة الأميركية غيردا ليرنر، التي قضت أكثر من عشر سنوات من عمرها في دراسة حضارات وادي الرافدين، إذ تؤكد أنّ «المصادر متوفرة جداً من أجل إعادة بناء تاريخي اجتماعي لمجتمع بلاد الرافدين القديم، لكن المشكلة هي مشكلة تفسير، وهي كأي مشكلة تفسير تعترض المؤرخ في أي حقل في مقاربة التاريخ التقليدي بأشياء تتعلق بالنساء، ولا يتوفر سوى القليل جداً من العمل الحقيقي حول النساء وما هو متاح هو وصفي، إذ لم يُقدم إلى الآن تفسيرات أو تلميحات بخصوص النساء من قبل المتخصصين المتدربين في هذا الحقل» (**ليرنر:** 2013 33). بل تدعو إلى ضرورة إعادة التأويل والدراسة المنهجية لتاريخ النساء، آخذة بعين الاعتبار أنّ جلَّ ما تم إنتاجه حتى الآن من تأويل للتاريخ تم على يد أبناء المؤسسة الأبوية وبهذه الروح السائدة فيها منذ القديم.

"حين نتحدث عن الحضارة القديمة في العراق نقصد ما أطلق عليها اسم ميزوبوتاميا، أي بلاد الرافدين، وهو مصطلح من أصل يوناني يعني «بلاد ما بين النهرين»، والنهران المقصودان هما دجلة والفرات اللذان ينبعان من الجبال في شرق تركيا، ويجريان إلى الجنوب والجنوب الشرقي على التوالي بمسافة 2033 كلم و2720 كلم، قبل أن يلتقيا بالكارون الذي يجري جنوب غرب إيران ليشكلا شط العرب الذي يصب في الخليج العربي» (**ساكز** 2009: 15).

وهذا التعيين الجغرافي ضروري لكي نحدد موقع الحضارة وسبب تسميتها، وبالتالي معاينة تاريخها الأركيولوجي الذي جعلها بقعة متميزة من العالم تفردت به بالكتابة التي كانت الفيصل في بدء تدوين التاريخ، إضافة إلى ما شهدته من مراحل تطور الإنسان القديم إلى العاقل مكتشف الزراعة والكتابة ومؤسس الفكر الديني.

«لقد برهن اكتشاف الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم على أنّ شمال العراق شهد حضور الإنسان فيه منذ زهاء 100,000 ق.م، وتكشف معسكرات ومستوطنات صغيرة منذ زهاء 9000 ق.م

عن المراحل الأولى للانتقال من الاعتماد الكلي على الصيد وجمع القوت نحو تدجين الحيوانات واستثمار النباتات للغذاء" (**ساكز** 2009: 19).

«ووجدت المستوطنات الزراعية في جنوب وادي الرافدين قبل عام 5000 ق.م، وبدأت أوائل المدن والكتابة فيها في أواخر الألفية الرابعة. وشهد النصف الأول من الألفية الثالثة (عصر فجر السلالات الذي يشار إليه بالحرفين ED[1] اختصاراً) تطور دويلات المدن في كل مكان من بلاد الرافدين، وبعد عام 2400 ق.م بوقت قصير غزا سرجون الأكدي جميع دويلات المدن هذه، لكي يُكوِّن منها أول امبراطورية (أكد أو الإمبراطورية السرجونية) التي سيطرت على أغلب أجزاء الشرق الأدنى، وبعد انهيارها بقرن تقريباً، أثبتت دويلات المدن نفسها من جديد حتى ظهرت إمبراطورية ثانية هي (سلالة أور الثالثة) في القرن الأخير من الألفية الثالثة التي انهارت بدورها تحت ضغط البدو الأموريين من الناحية العرقية وكونوا الممالك (الحقبة البابلية القديمة)، وأحرزت إحدى الممالك وهي بابل الأسبقية القومية بعد عام 1800 ق.م وأعطت البلاد كلها اسم بابل أو بابلونيا، وانهارت زهاء 1600 ق.م، لتحل محلها السلالة الكيشية وحكمت حتى منتصف القرن الثاني عشر لتحل محلها سلالة محلية هي (سلالة إيسين الثالثة)، وبدأت هجرة بدوية جديدة، وبدأ منذ الثلث الأخير للقرن الثامن صراع ما بين الآشوريين والكلدانيين لتسقط بالنهاية في يد حلف من الكلدانيين والبابليين والميديين، ولتشكل مع نهاية القرن السابع سلالة قوية جديدة هي (السلالة البابلية الجديدة أو الكلدية) على يد أبي نبوخذ نصَّر، وبلغ الحكم البابلي المحلي نهايته عندما انتزع قورش الفارسي بابل عام 539 ق.م (الحقبة الإخمينية)» (**ساكز** 2009: 36).

وسيتضمن المطلبان اللاحقان تركيزاً أكثر كثافةً على تاريخ وادي الرافدين القديم للربط ما بين عصور التاريخ بأقسامها الأساسية وما حدث فيه من تحولات وما بين دور ومكانة المرأة، على صعيد المجتمع والدين.

1 (Early dynastic period) عصر فجر السلالات

خريطة المواقع الأثرية في بلاد ما بين النهرين – حيث تظهر فيها المدن التاريخية والمدن الحديثة وهي معتمدة من معهد أوريانتال – جامعة شيكاغو
http://faculty.gvsu.edu/websterm/SumerianMyth.htm#Sumerlinks

المطلب الثاني- مكانة المرأة في بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ

«شغلت عصور ما قبل التاريخ أكثر من 99 % من تاريخ الإنسان، فهي تمتد منذ ظهور الأجناس والأنواع الأولى للبشر على وجه الأرض، قبل حوالي خمسة ملايين سنة، وتبدأ بوضوح من حوالي مليون عام قبل الآن، وتنتهي في حدود الألف الرابع قبل الميلاد في وادي الرافدين عندما اخترعت الكتابة لأول مرة ودخل الإنسان العصور التاريخية. وتنقسم عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين إلى ست مراحل:

(الإيوليت) العصر الحجري الفجري (1 -0.5) مليون سنة.

(الباليوليت) العصر الحجري القديم (500,000 – 12,000 ق.م).

(الميزوليت) العصر الحجري المتوسط (12,000 – 8,000 ق.م).

(النيوليت) العصر الحجري الحديث (8,000 – 5,000 ق.م).

(الكالكوليت) العصر الحجري النحاسي (5,000 – 3,200 ق.م).

(الشبيه بالكتابي) البروتولتريت العصر الشبيه بالتاريخي (3200 – 2900 ق.م) (**الماجدي** 35: 2013).

لقد ظهرت أولى علامات التواصل مع العالم القدسي لدى الإنسان القديم وبذور الدين الأولى في الباليوليت الأوسط مع ظهور الإنسان النياندرتال (Homo neanderthalensis) وذلك من خلال طريقة الدفن الشعائري التي تمت في الكهوف، حيث كانت طريقة الدفن والأدوات التي تصاحب الجثة وتوجيهها تمثل دليلاً على هذا التواصل، وكأنّ الكهوف تحوّلت إلى معابد، وهو ما عبّرت عنه أيضاً الرسوم. فقد أثبت الباحثون والمؤرخون والعلماء من خلال اكتشافاتهم تلك أنّ الدين ارتبط بالإنسان منذ القدم في رحلة بحثه عن السر الغامض الذي يكمن وراء هذا الكون، وأنّه استشعر حينها وجودَ عالمين عالم يعيشه ويراه وعالم خفي يستشعره من خلال تلك القوى والظواهر الطبيعية ولكنه لا يدركه أو يحوط بكل خفاياه، فكانت تلك التمثلات الدينية تعبر بشكل أو بآخر عن مجموعة علائق المقدسات مع بعضها من جهة وعلاقتها بالعالم الدنيوي من جهة أخرى.

تشير الدراسات إلى أنّ النياندرتال كان أول نوع بشري عُني بدفن موتاه، وقد تمت دراسة هذه الظاهرة من خلال دراسة القبور، حيث تبيّن بأنّه تمتع بحياة روحية تعكس وسطاً فكرياً غنياً بالأفكار والتأمل، فأساليب الدفن، حيث طي الجسد، وتوجيه الرأس نحو الشرق، ووجود بعض الألواح التي تحميه، ووجود بعض العظام لحيوانات وقرون مصطفة بشكل منتظم، كلها دلالات على أنّ النياندرتال كان يعتقد بأنّ الكائن الحي يتألف من جسد مادي وروح لطيفة، وأنّ هذه الروح تستقل عن جسد الميت لترحل إلى عالم آخر موازٍ لعالم الأحياء، وتكتسب قوة غير اعتيادية تتخذ شكلاً نافعاً أو ضاراً وفقاً لموقف الأحياء منها، أما وجود بعض آثار جماجم أو قرون فهي قرابين ولكن ليست بمعنى القرابين المعروفة الآن، لأنّ مفهوم الإله لم يكن قد ظهر بعد، ولم تكن تدل على أنّه كان يتعبد تلك الحيوانات بذاتها، وإنّما، كما يقول السواح: «ليستحضر من خلالها قوة العالم الموازي» (**السواح** 2002: 150)، لقد كان لدى النياندرتال تصورات تقوم على وجود عالم قدسي لا مرئي وكان يستعين بوسيط بينه وبين هذا العالم، وكان الدين في هذه المرحلة ينبعث من عالم ما ورائي مجهول.

"ويشير دوركهايم إلى أنّ كل المعتقدات الدينية بسيطها ومركبها ينطوي على حقيقة عامة مشتركة، فهي تفترض تقسيماً لكل الأشياء المنظور منها والغيبي يضعها في زمرتين، زمرة المقدس (Sacred)، وزمرة الدنيوي (Profane)، وهذا تقسيم إلى عالمين أحدهما يحتوي على كل ما هو مقدس، والآخر يحتوي على كل ما هو دنيوي، وهذه السمة الأساسية المميزة للفكر الديني، وكل التمثلات الدينية ما هي إلا وسائل تعبير عن طبيعة الأشياء المقدسة وعلاقتها ببعضها وعلاقتها بالأشياء الدنيوية" (**السواح** 2002: 26).

"وشهد الباليوليت الأعلى، وهو آخر مراحل الباليوليت والذي ظهر فيه الإنسان العاقل(Homo sapiens)، ظهور الدمى الفينوسية، ولكن ما يسترعي الانتباه في تلك الدمى أنّها اكتشفت في وقت بعيد عن زمن اكتشاف الزراعة الذي ستظهر فيه لاحقاً وبأعداد كبيرة، لأنّها ستكون معبّرة عن الزراعة والخصب، فظهورها في الباليوليت الأعلى وبأعداد محدودة، يدل على عدم ارتباطها بظهور تحول بيئي أو اقتصادي أو اجتماعي أو ديني كبير، مثلما حصل مع دمى النيوليت، وإنّما يدل على استمرار ظهور المقدس بصيغة أنثوية ولادية، ويمثّل ما جسدته هذه الدمى صورة من صور تجليات المقدس واستمرار تدفقه الديني ليفصل بين العالمين الإنساني والإلهي" (**الماجدي** 1977: 45). لقد حاول إنسان الباليوليت أن ينقل إحساسه بالعالم القدسي عن طريق رسوم الكهوف، ثم استطاع أن يعبّر، من خلال تلك الدمى العشتارية، عن إحساسه بالآلهة التي كانت في تصوره أنثى.

ويذهب الماجدي إلى القول بأنّه "لو تأملنا أهم عناصر دين الباليوليت الأعلى (النار، الحيوان، المدفن، الكهف، المعبد الكهفي، تعاويذ المحار، الصبغة الحمراء، الرسوم، الدمى الأنثوية) لرأينا أنّ هذه العناصر تبدو كما لو أنّها تشكل عالم الرحم عند المرأة، ويوضح كذلك أنّ "النار دلالة على دفء الرحم وحرارته الثابتة، والحيوان دلالة على التشكل الجيني الأول الذي هو واحد في جميع الحيوانات ذوات الرحم ويقترب من الشكل الحيواني في تلك البدايات، أما المدافن والكهوف والمعابد الكهفية فهي الرحم نفسه الذي لجأ إليه الإنسان في حياته وعبادته، ويعطي الكهف صورة رمزية للرحم الذي يختبئ في أحشاء الجسد ويخفي فيه أسرار الحياة والولادة، ولا شك في أنّ جدران الكهوف، التي جسّدت الرسوم الأولى للإنسان بهيوليتها وأشكالها النافرة والتجريدية أحياناً، تعبر عن تلك الرؤى والأطياف الأولى لعالم الرحم الذي يزخر بعناصر التوتر والحياة" (**الماجدي** 1977: 53 -54).

ومن الدراسات اللافتة، في هذا السياق، ما قام بها أحد الآثاريين في أميركا، وهو عميد كلية بنسلفانيا دان سنو (Dean Snow) الذي نشر، أواخر العام 2013، دراسة في **ناشيونال جيوغرافيك** أفادت بأنّ شكل طبعات الأصابع المتكررة على الجدران في الكهوف تمثل أصابع نساء بنسبة تزيد على 75%.

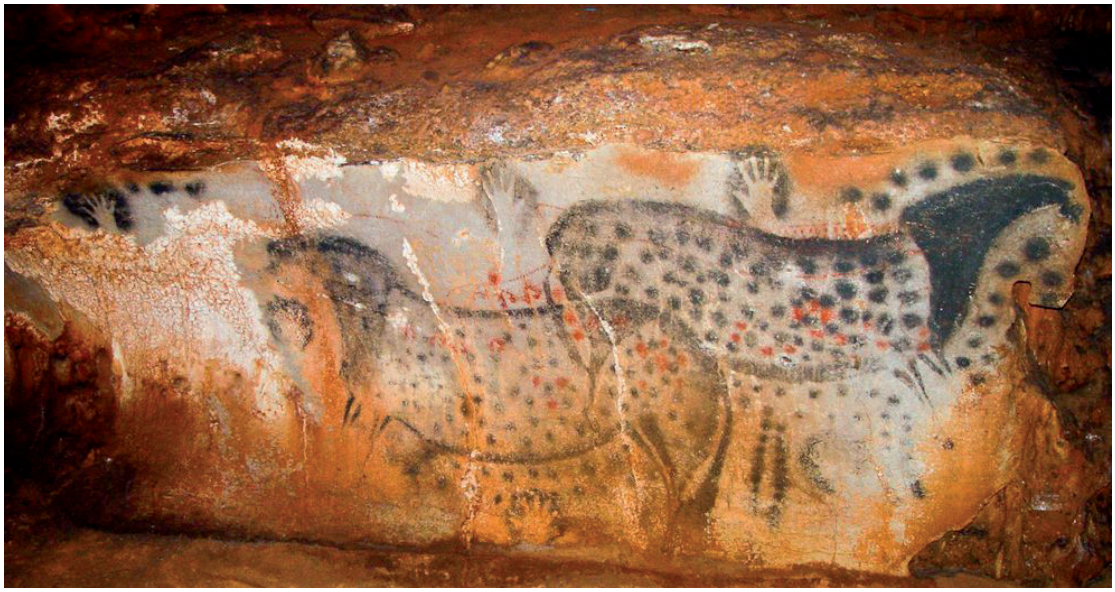

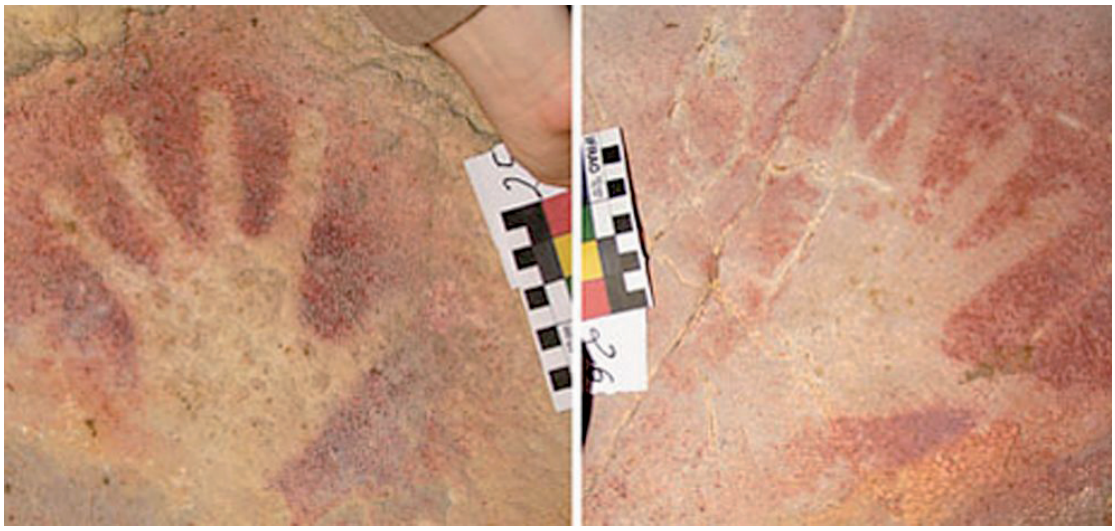

كهف Pech Merle– فرنسا – طبعات الأيدي - موقع **ناشيونال جيوغرافي**
http://news.nationalgeographic.com/news/2013/10/131008-women-

ولفتت الدراسة إلى أنّ العديد من الكهوف احتوت على طبعات للأيدي ومنها كهوف في الأرجنتين، والبيرو، وأفريقيا، واستراليا، وجنوب فرنسا، وشمال إسبانيا (**ناشيونال جيوغرافيك** 2013).

وقد تكون ميزات العصور الثلاثة الأولى لمجموعة عصور ما قبل التاريخ متشابهة وواحدة في جميع المناطق، إلا أنّ الكنوز الآثارية التي وجدها الباحثون في بلاد الرافدين أكدت أنّ العصور الثلاثة التالية في وادي الرافدين حملت طابعاً خاصاً ميزها كمنظومة واحدة شكلت مهد الحضارة الرافدينية. هذه العصور سبقت الكتابة فسيطرت فيها الشفاهة، ورُسمت فيها بدايات التشكل الثقافي والسياسي والديني والاجتماعي، وشهدت ظهور تسع حضارات قبل سومر فكانت على التوالي: جرمو، الصوان، حسونة، سامراء، حلف،

أريدو، العبيد، أوروك، جمدت نصر، التي كونت المادة الخام للحضارات التي تليها. «وإذا كان الباليوليت أوروبياً والميزوليت شامياً، فإنّ النيوليت كان رافدينياً شمالياً يدل على ذلك انتظام ثقافاته المتتالية المترابطة، وهي كما يلي:

اسم الثقافة النيوليتية	عدد سنواتها	الفتره الزمنية التقريبية
1. جرمو	2000	8000 -6000 ق.م
2. الصوان	200	6000 – 5800 ق.م
3. حسونة	700	5800 – 5100 ق.م
4. سامراء	200	5100 – 4900 ق.م.

جدول رقم (1) ثقافات النيوليت (**الماجدي** 1997: 27).

وكان التطور الحثيث الذي جاءت به الزراعة في شمال العراق مفتتحة به عصر النيوليت مدعاةً لظهور ثقافات أو حضارات أربع هي (جرمو، الصوان، حسونة، وسامراء)، وقد استغرق ظهورها حوالي ثلاثة آلاف سنة، وكانت جميعها زراعية فلاحية سادت فيها المرأة كزعيمة، وعبدت فيها الإلهة الأم، ثم جاءت الانعطافة النوعية الثانية التي جاء فيها اكتشاف المعادن وبدء عصر الكالكوليت الذي انتقل مسرحه إلى جنوب العراق وظهرت فيه خمس ثقافات هي (حلف، أريدو، العبيد، أوروك، جمدت نصر)، واستغرقت هذه الحضارات حوالي ألفي سنة، وكانت جميعها ذات طبيعة مدينية حرفية، إضافة لاهتمامها بالزراعة، وساد فيها الرجل كزعيم للقوم وظهر الإله الذكر ومن ثم ظهور الآلهة المتعددة، وخصوصاً تلك المرتبطة بالطبيعة" (**الماجدي** 2013: 130).

وشكلت العصور التي سبقت اختراع الكتابة المهد الحقيقي لحضارة الرافدين على وجه الخصوص ولحضارات العالم على وجه العموم، فبعد تدجين الحيوانات واكتشاف الزراعة، وظهور أولى أشكال الدين ممثلاً في عبادة الإلهة الأم، إلى اكتشاف المعادن، توّج اختراع الكتابة الصورية في أوروك المشهدَ ليمهد الطريق لفجر الحضارات ممثلة في حضارة سومر. ولعل عبادة الإلهة الأنثى كانت نابعة من مكانة متميزة شغلتها المرأة في وجدان الإنسان ارتبطت بالخصب والنماء، ما دفعه ليصنع تلك الدمى الفينوسية التي تمثل المرأة في مختلف مراحل الأمومة، فالنساء الحبالى أو في وضعية الولادة، والنساء ذوات الأثداء الممتلئة، إشارة إلى وفرة الغذاء والإرضاع، صنعها الإنسان تشبيهاً لتلك القوى الخفية المسؤولة في اعتباره عن خلق الكون. يظهر الجدولان 2 و3 ملخصاً يوضح مراحل تشكل عصور ما قبل التاريخ والحضارات التي نشأت فيها، وظهور الدمى الفينوسية، وبدء ظهور التماثيل للابن والإله الذكر.

عصور ما قبل التاريخ	(الإيوليت) العصر الحجري الفجري (1 - 0.5) مليون سنة		
	العصر الحجري القديم (500000 – 12000 ق.م) (الباليوليت)	الباليوليت الأسفل	• الإنسان المنتصب • صناعة الأدوات الحجرية واكتشاف النار • ظهور المقدس
		الباليوليت الأوسط	• الإنسان النياندرتال • الدفن برفقة المقدسات النار والحيوان والفأس، وتوجيه الجثث كواحدة من ظواهر التطور الديني والروحي
		الباليوليت الأعلى	• الإنسان العاقل • الجداريات والدمى الفينوسية • بدء تشكيل المقدس • الكهوف كانت المعابد الأولى للتواصل مع عالم اللاهوت
	العصر الحجري الوسيط (12000 – 8000 ق.م) (الميزوليت)		• ممارسة السحر وظهور الدمى الفينوسية ودمى الحيوانات
	العصر الحجري الحديث (8000 – 5000 ق.م) (النيوليت)		• تدجين الحيوانات واكتشاف الزراعة • الإلهة الأنثى وسيطرة المرأة • المجتمع الأمومي • الأم هي مركز العائلة لأنّها المنجبة والمربية وربة البيت • الرجل صياداً أو راعياً، ومازال دوره في عملية الإنجاب مجهولاً • الإلهة الأم (Mother-goddess)
	العصر الحجري النحاسي (5000 – 3200 ق.م) (الكالكوليت)		اكتشف الرجل دوره في الإنجاب، واكتشف المعادن وخاصة النحاس وظهرت الثورة الذكورية والمدينة والزعامة والإله الذكر (الأب والابن) واخترعت العجلة والسفينة الشراعية وأصبح المعبد هو المركز.
	العصر الشبيه بالكتابي (3200 – 2900 ق.م) (البروتوليتريت)		شكلت هذه العصور الثلاثة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ مهد الحضارات وكانت متميزة في وادي الرافدين أو لنقل بأنّها كانت رافيدينية، ومهدت لاختراع الكتابة (الماجدي 39-35: 2013).

جدول رقم(2)

العصر الحجري الحديث (8000 – 5000 ق.م) (النيوليت)	**جرمو** **2000 سنة** 8000 - 6000 ق.م	• الخصب والزراعة • عبادة الإلهة الأم • ديانة أمومية
	الصوان **200 سنة** 6000 - 5800 ق.م	أول معبد يحتوي تماثيل أنثوية وذكرية وعقائد ما بعد الموت وبدايات عبادة القضيب والمزارات والمدافن
	حسونة **700 سنة** 5800 - 5100 ق.م	• أول رسم لملامح وجه بشري بملامح كاملة وملونة • دمى الإلهة الأم الواقفة • ممارسة الزواج المقدس
	سامراء **200 سنة** 5100 - 4900 ق.م	• بدء التجريد والرموز على شكل صليب معكوف والمندالا[2] وأشكال حيوانية • رقصة الاستسقاء المطرية
العصر الحجري النحاسي (5000 – 3200 ق.م) (الكالكوليت)	**حلف** **600 سنة** 4900 - 4300 ق.م	تماثيل الأم الإلهة البدينة (عشتار) والإله الأب
	أريدو **300 سنة** 4300 - 4000 ق.م	أول معبد في التاريخ على شكل النصف الأعلى من الجسد
	العبيد **500 سنة** 4000 - 3500 ق.م	معابد الريح وإله الهواء قوياً ومخلوطاً بنزعة الأم الريح
العصر الشبيه بالكتابي (3200–2900 ق.م) (البروتوليتريت)	**أوروك** **500 سنة** 3500 - 3000 ق.م	• السومريون • المعابد المدرجة (الزقورة) • أرضيات المعابد على شكل صليب والنصف الأعلى من الجسد
	جمدت نصر **200 سنة** 3000 - 2900 ق.م	• أول زاقورة (زاقورة آنو) • أساطير (ديموزي وإنانا) • بدايات الأدب الديني (كالا) بشكل خاص

جدول رقم(3)

2 "دائرة تنقسم إلى أجزاء متناظرة تنشد كلها نحو المركز، أو تشع عنه في تكوين جمالي متماسك، وترمز المندالا إلى حركة الوجود حول مركز واحد، ويبدو لنا مركز المندالا وكأنّه المطلق الذي تدور حوله التفاصيل، ويشير رمز المندالا قديماً وحديثاً إلى فرد مركزي عظيم يحيط به الكون، أو إلى انبعاث هذا الكون منه، وسواء كان هذا المركز هو الله، أو الإنسان، فإنّه في كلا الحالتين يشير إلى الكلية والكمال" (الماجدي102: 1997).

إنّ ظهور التماثيل الأنثوية النيوليتية في عدة وضعيات ممثلة للإلهة الأنثى عكس ملامح دينية في عبادة الخصب واسعة الانتشار، ودل، بالتالي، على أنّ المرأة وارتباطها بالخصب والولادة كانت المثال الأقرب شبهاً للطبيعة فهي تشبه دورة الخصب والإثمار والربيع وعودة الحياة، خاصة مع عدم وضوح الدور الذي يلعبه الرجل في هذا بالعودة إلى التباعد ما بين فترة التزاوج والولادة، وكل تلك التطورات التي تطرأ عليها ولا تطرأ على الرجل، كل ذلك جعل من المؤكد أنّها الإلهة المسؤولة في مخيال الإنسان آنذاك عن الخصب في الكون على مستوى الأرض وعلى مستوى السماء.

ويجدر هنا التنويه إلى أنّ توفر تلك الكنوز الآثارية لم يشكل لدى بعض الباحثين أداة جزم بانتشار ظاهرة عبادة الإلهة إلا حين توفرت الأدلة التاريخية المستوحاة من مادة الأساطير والطقوس، التي بينت أنّ هناك عبادة إلهة كونية هيمنت على كل النصوص، ما ساعد على تدعيم هذه الفرضية بشكل أكبر وأوسع، فضلاً عن أنّه وبالرغم من التحول إلى النظام الأبوي مع العصر الكالكوليتي إلا أنّ المكانة الرفيعة التي احتلتها المرأة مع الطور الأول من عصر فجر السلالات في بداية العصر السومري، وتمتعها باستقلال ذاتي كبير على مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، أكد ما حصل في العصور النيوليتية من تسيّد للمرأة وعبادة للإلهة وظهور مجتمع أمومي.

ويؤكد السواح هذا الأمر من خلال الأساطير «فكون الديانة النيوليتية كانت ديانة زراعية في اعتقادها وطقسها، كانت الأسطورة الأولى أسطورة زراعية تتركز حول إلهة واحدة هي سيدة الطبيعة في شكلها الوحشي، وشكلها المدجّن الجديد الذي تشارك يد الزارع في قولبته وتأهيله، ومع نضوج الثقافة النيوليتية واكتمال الشكل الاقتصادي الجديد وتزايد الدور الاجتماعي للرجل بعد أن كان المجتمع أموميّاً في جوهره، أصبحنا نجد إلى جانب الإلهة الأم ابنها الذي نشأ عنها والذي دعته عصور الكتابة بتموز أو أدونيس» (**السواح** 2002: 25).

وأتت الطقوس التي سادت في هذه العصور لتعكس عبادة الإلهة الأم. وقد أشار السير فريزر إلى أنّ «هذه الطقوس كانت تجري اعتماداً على مبدأ التشابه «وهو أنّ الشبيه ينتج شبيهه أو المعلول ينتج علته»، فإنّ الاعتقاد يكون بأنّ تحقيق الأهداف والنتائج يكون بمحاكاتها أو تقليدها» (**فريزر** 104: 1971)، لذا حاول إنسان هذا العصر محاكاة تلك الأساطير وتجسيدها وتشبيهها من خلال مجموعة من الطقوس، بحيث يكون الطقس الأسطوري الذي يعتمد الإيماءة لبعث الحياة في الطبيعة استمراراً للخصب والتكاثر والنماء.

وتنوعت هذه الطقوس فكانت المصارعة وكان الزواج المقدس وكان الاستسقاء (الرقص الديني) وكلها في إطار غاية وهدف هو تعظيم الإلهة الأم وطلب الخصب والرخاء والتكاثر.

"أما المصارعة فهي تعبر عن طقس ديني يتم فيه اختيار الضجيع المناسب للملكة ليقوم بمراسم الزواج الموسمي، أما طقس الاستسقاء فكان دراميّاً في جوهره لأنّه يقوم على صراع الخصوبة (المرأة ونثرها لشعرها) مع الجفاف وتذبذب المطر، ولكن فيه البعد الديني، حيث يجري تحت رعاية الكاهنات والناس الذين يشكلون النظارة والذين يترقبون الطقس ويعيشون فيه، وأما الزواج المقدس فهو الطقس والعيد الأكبر، حيث تقع المرأة الكاهنة والتي تمثل الإلهة الأم في مركزه وهي زعيمته" (**الماجدي**115: 2013).

ولوحظ في تماثيل الفينوسات الأولى عدم الاكتراث بملامح الوجه بقدر الاهتمام بوضعيات الحمل والولادة والأعضاء الضخمة كرمز للخصوبة، لأنّ اهتمامه بذلك التشابه الكبير ما بين دورة الطبيعة من الخصب والنماء والجفاف والموت من جهة، والحمل والولادة من جهة ثانية، جعله يركز على إبرازها وتعظيمها، كما يحصل في كل المجتمعات وحتى اليوم في استحضار روح الإله بما يشبهه على الأرض ويقدسه ويرفع مكانته، ما يعيد التأكيد بلا شك على تلك الهالة من القدسية التي كانت للمرأة ومكانتها البارزة.

واستدلت مارلين ستون من خلال طرح السؤال الآتي: كيف كان حال النساء حيث قُدِّسَت المرأة؟ وأجابت عنه مستشهدة بآراء العديد من علماء الأنثروبولوجيا والتاريخ والاجتماع لتؤكد بأنّ كون المرأة كانت مقدسة في صورة الإلهة، فهذا يستدعي أن يكون للمرأة السيطرة على الأرض، كما حالنا اليوم مع ذكورية الإله، وقد يكون العكس وهو أنّ مكانة المرأة الرفيعة عكست تقديس الإلهة الأنثى، كما ذهب إليه السير جيمس فريزر الذي رأى أنّ «الحالة الرفيعة للنساء مسؤولة أساساً عن تقديس وتقدير الإلهة الأنثى» (**ستون** 1998: 55).

ويشير طه باقر «إلى أنّ مساهمة المرأة في تدجين الحيوانات، واكتشافها الزراعة أرسى أهم عامل لاستقرار الإنسان وبناء الحضارة، وكان لها سيطرة حقيقية على تلك العصور والتي دُعِيت عصر سيطرة المرأة (Matriarchy)، فكانت أعمال المرأة بالإضافة لتربية الأطفال تتعلق بطحن الحبوب وتهيئة الخبز والطعام، وكذلك الغزل لصنع الملابس وتهيئة جلود الحيوانات، والعناية بتلك الحيوانات المدجنة في حظائرها، أما أبرز أعمال الرجل وواجباته فكانت على الأرجح تتعلق في صنع الأدوات الحجرية والأسلحة البسيطة وحماية قطعة الأرض الصغيرة المزروعة وصيد الحيوانات، ومع اكتشاف المعادن واستخدامها في تطوير أدوات الإنتاج جرى تطور على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأت فكرة الملكية الفردية، أي ملكية الحقل وأدوات الإنتاج والحيوانات المدجنة" (**باقر، ج1** 225: 2009).

ويؤكد السواح بأنّ العلم أثبت أنّ التجمع الإنساني الأول لم يتأسس بقيادة الرجل المحارب الصياد، بل تبلور تلقائياً حول الأم التي شدت عواطفها وحدبها ورعايتها، الأبناء حولها في أول وحدة إنسانية متكاتفة هي العائلة الأمومية خلية المجتمع الأمومي الأكبر، لقد أسلم الرجل قيادة المجتمع للمرأة ليس لتفوقها الجسدي،

بل لتقدير أصيل لخصائصها الإنسانية وقواها الروحية وإيقاع جسدها المتوافق مع الطبيعة، لقد كانت محور العمل على أنواعه منذ البداية، فكانت المنتج الأول في الجماعة والراعية الأولى، وأولى الصناعات كلها ولدت على يديها، حتى إنّها كانت من أوقدت شعلة النار، وحافظت على جذوتها وعلى أسرارها. وهي التي أسست العدالة والمساواة، وابتعاد سيكولوجيتها عن العنف والاستبداد أعطى الحرية هواءً تنفسته المجتمعات الأمومية، حتى إنّ الرجل في عهدها كان أكثر عزة وأنفة وفروسية من رجال العصر البطريركي (**السواح** 2002 :34-32).

فإذا كانت المرأة وراء اكتشاف الزراعة، وبالتالي لديها السيطرة على الإنتاج الزراعي، ومن ثم الأراضي، وعلى المجتمعات الصغيرة التي استقرت على الأراضي المزروعة، وكانت الإلهة التي تقام لها المعابد والزقورات، فما هو السبب الذي جعل المرأة المتحكمة في مفاتيح الإنتاج والدين تخضع للرجل، وتنسحب شيئاً فشيئاً من أدوارها المركزية إلى الأدوار الثانوية، فاسحة المجال لتشكل المجتمع الأبوي حتى الزمن الراهن؟

«إنّ جملة من التطورات قد زعزعت عرش المرأة ونقلت المجتمع من سيطرتها إلى سيطرة الرجل، وهو «أكبر تراجع للمرأة في التاريخ» على حد تعبير إنجلز في كتابه **أصل الأسرة**، وذلك لأنّه استفاد من حريته الشخصية، فسخّر المعادن والآلات حسب رغبته واحتكر المهام التي تفتح له المجال للسيطرة على الطبيعة» (**عقراوي** 23: 1978). وهذا واحد من الآراء التي بيّنت أنّ ارتباط المرأة بالحمل والولادة منح الرجل حرية التنقل، ما يحمل إشارة غير مباشرة إلى تخصيص وظيفي بيولوجي للمرأة بتربية الأولاد والعناية بهم وضعف مقدرتها البدنية وقد خالف العديد من الباحثين هذا الرأي.

ويلفت ويل ديورنت «إلى أنّ الرجل كان من جملة ما استأنسته المرأة من حيوان»، في إشارة إلى الرجل الصياد المتنقل وغير المستقر، إذ يرى أنّ «معظم التقدم الذي أصاب الحياة الاقتصادية في المجتمع البدائي كان يُعزى للمرأة، فبينما الرجل ظل متمسكاً بأساليبه القديمة من صيد ورعي، كانت هي تطور الزراعة وتباشر تلك الفنون المنزلية التي أصبحت في ما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات؛ ومن شجرة الصوف – نبات القطن – غزلت الخيوط ونسجت الثياب؛ وهي على، أرجح الظن، تقدمت بفنون الحياكة والنسج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء، بل هي التي قامت بالتجارة في حالات كثيرة، وهي التي طورت الدار واستطاعت بالتدريج أن تضيف الرجل إلى قائمة ما استأنسته من حيوان، ودربته على أوضاع المجتمع، وسرعان ما بدأ يستلم زمام الأمور شيئاً فشيئاً وعرف في تربية الماشية مصدراً جديداً للقوة والثراء والاستقرار، فانتزع منها زعامتها الاقتصادية، واستخدم الحيوان الذي استأنسته المرأة في الزراعة وبقوته البدنية تمكن من استخدام المحراث، وكلما ازداد ما يملكه من ماشية ومنتجات الأرض، سيطر جنسيّاً على المرأة ليورث أبناءه وهكذا اعْتُرف بالأبوة في الأسرة، وبدأت الملكية تهبط في التوريث

عن طريق الرجل لتندحر الأمومة وتصبح الأسرة الأبوية هي الوحدة الاقتصادية والشرعية والسياسية والخلقية في المجتمع» (**ديورنت** 61: 1988).

ومن المؤكد أنّ الرجل استفاد من الحيوانات المدجنة وبدأ يكتشف دوره في الإنتاج وفي التناسل. فضلاً عن أنّ استخدام المحراث أدى إلى إبعاد المرأة كثيراً عن النشاط الزراعي، ونظراً إلى كون استخدام الحيوان في الزراعة قد أسهم في تحسين الإنتاج ومنح الرجل مكاناً في العملية الاقتصادية، فقد اتسعت دائرة إنتاج الغذاء من مرحلة الاكتفاء الذاتي إلى مرحلة الفائض، فكانت أولى بذور الاحتكاكات ما بين مالكي القوت والغذاء ومنتجيه، والجماعات التي لم تتعلم الزراعة أو ما زالت في طور الصيد وجمع القوت، وهنا تتجلى وجاهة ما ذهب إليه ديورنت وهو ما نتفق معه بأنّ الرجل سيطر على المرأة جنسيّاً لينقل نظام التوريث إليه، وبالنتيجة ينقل الثروة إلى طرفه تمهيداً لظهور الملكية الفردية التي منحته السلطة، وكانت الأساس في تسيده في المجتمع الأبوي.

لقد ذهب العديد من الباحثين إلى اعتبار أنّ المرأة مثّلت الطبيعة، والرجل مثّل التطور والثقافة وإخضاع الطبيعة، وهذه النظرية فقدت معناها في ظل استحالة تطويع الطبيعة بالمطلق وفي ظل اختلاف الظروف التي كان الرجل والمرأة قديماً يعيشان فيها وجهاً لوجه مع الطبيعة وأهوالها، وهذا لا يندرج على عصرنا الحالي.

المطلب الثالث- مكانة المرأة في بلاد الرافدين منذ فجر السلالات

إنّ بحث مكانة المرأة في العصور التي تلت العصر الشبيه بالكتابي يقود بالضرورة إلى بعض التفصيل في كل حضارة من حيث عصورها ومن حيث سلالات ملوكها، لسببين، الأول حاجتنا لمعرفة طبيعة الحكم وزمانه وسيرورة الأحداث التي ستلعب بشكل أساسي في تحوّل مكانة المرأة وانزياحها، والثاني التمهيد للجزء المهم من التوثيق الذي يعتمد على نصوص القوانين والإصلاحات والتشريعات، فتتحدد مرجعيتها والعصر الذي خرجت فيه، وبالتالي قراءة التغير الذي طرأ عليها لدراسة العلاقة التبادلية بين التشريع وأحوال الاجتماع.

أولاً- لمحة موجزة عن الحضارة السومرية

يشير السواح "إلى أنّ الثورة الزراعية أعطت البداية الحقيقية لحضارتنا، أما الثورة المدينية فقد أعطتها أطرها الأولى التي مازالت قائمة في أساسات مجتمعات العصر الحديث؛ ولا شك أنّ منطقة الشرق الأدنى القديم هي التي حققت هاتين الثورتين بمعزل عن أي تأثير خارجي، وتمت الثورة المدينية وظهرت المدن الأولى في التاريخ في سومر في وادي الرافدين" (**السواح** 8: 2002).

وجمعت الحضارة السومرية جملة من أهم ركائز الحضارة في التاريخ الإنساني، وفي مقدمتها الكتابة التي كانت السبب الأساسي في حفظ الذاكرة الإنسانية وتدوينها، وشهدت تكوين المدن والقوانين والشرائع، والعلاقات الاقتصادية، والفن والموسيقا، فكان أوركاجينا أول مصلح في التاريخ، وكانت آنخيدو- آنا الكاهنة العليا وأول شاعرة في التاريخ، وأول من وقّع باسمه على النصوص.

"وامتد تاريخ السومريين إلى 5000 ق.م، ويرجح الماجدي أنّ أجداد السومريين هم الذين اكتشفوا المعادن وطوعوها، وهم الذين طوروا أنظمة الزراعة المطرية الشمالية إلى أنظمة زراعية إروائية في الجنوب، وحصل هذا بعد حضارة سامراء وهي الموطن الشمالي العراقي للسومريين قبل أن يبدأوا هجراتهم مع نهري دجلة والفرات إلى جنوب العراق في الألف الخامس قبل الميلاد" (**الماجدي** 2013: 130).

ومن الضروري رصد تاريخ تكون السلالات الحاكمة، اعتباراً من سومر، لأنّ لهذا علاقته الوثيقة بموضوع البحث، فـ «الانقلاب الذكوري» ترافق مع ثورة المعادن وصناعة الأسلحة والحروب والتوسعات وتشكيل المدن وظهور التشريعات وإن بشكلها الأولي على هيئة إصلاحات، وهو ما سيلقي الضوء على طبيعة المجتمع والعلاقة ما بين المعبد والقصر، أو بمعنى آخر تاريخ المؤسسة الدينية «الكهانة»، ومن الجدير ذكره أنّ أولى الإصلاحات التي قام بها أوركاجينا عكست وجود الطبقية في المجتمع، وما يدعم ذلك هو تراكم الثروات والإنتاج الذي أفرزته عصور النيوليتي التي كان المتحكم فيها هو الزراعة والري، ما جعل هناك توزيعًا للثروة حسب توزيع الأراضي وقربها أو بعدها من مجاري الأنهار، وكانت خاضعة لسلطة المعبد.

ويُقسم تاريخ السومريين بعد اختراع الكتابة إلى ثلاثة عصور:

العصر القديم (عصر فجر السلالات السومرية) (2900 – 2370 ق.م):

"وهو العصر الذي تلا العصر شبيه الكتابي، وقد أطلق عليه عدة تسميات، منها تسمية الأستاذ فرنكفورت (H. Frankfort) عصر فجر السلالات (Early dynastic period)، وكذلك أطلق عليه "عصر ما قبل سرجون" لكونه سبق حكم الملك الآكدي سرجون و"عصر اللِّبن" لشيوعه في البناء، والباحثون الألمان أطلقوا عليه اسم "عصر لجش" نسبة إلى مدينة لجش السومرية" (**باقر، ج1** 280: 2009).

وعكست تلك التسميات مختلف جوانب التطور الذي حصل فيها، فعصر السلالات ينمّ عن تطور سياسي ظهرت فيه السلالات الحاكمة، وعصر اللِّبْن يدل على التطور العمراني وبناء المدن، وهذا أيضاً كان السبب في إطلاق اسم عصر "دول المدن" (City-states)، ولكن بغض النظر عن التسميات المختلفة فقد كان هذا العصر عصر الحضارة السومرية بامتياز والتي كانت أساس تكوين حضارة الرافدين وظهور أبرز أوجهها ومقوماتها، ودامت هذه الفترة ما بين خمسة أو أربعة قرون ما بين نهاية حضارة جمدت نصر حتى بداية

الحكم الأكدي، حيث سادت اللغة والثقافة السومرية وحكمت فيه السلالات السومرية دويلات انتشرت في وسط وجنوب وادي الرافدين.

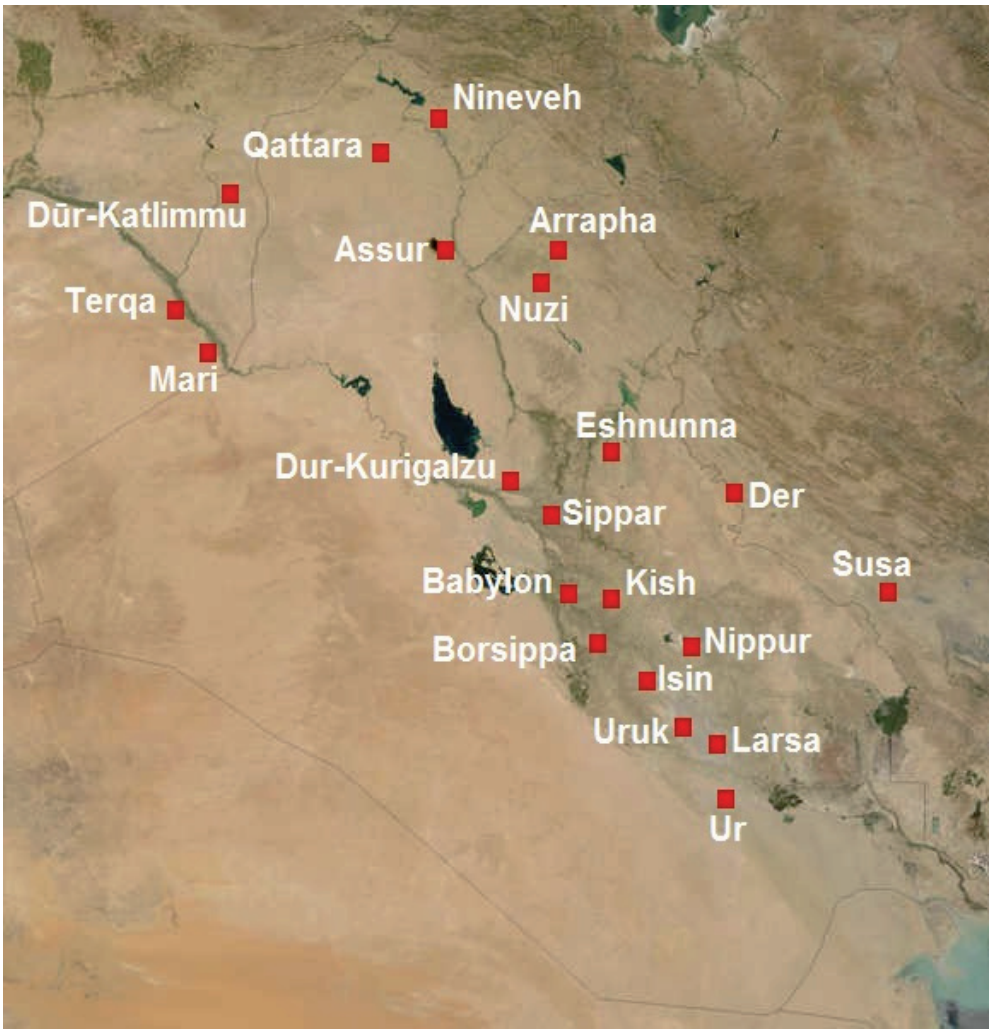

خريطة تمثل بلاد ما بين النهرين في الألفية الثالثة قبل الميلاد – موقع المعرفة.
http://www.marefa.org/images/f/fa/Meso2mil-English.JPG

قسم الباحثون أطوار هذا العصر إلى ثلاثة عصور حسب السلالات الحاكمة التي حكمت كل عصر منها، كما يظهرها الجدول 4 الذي تم إعداده اعتماداً على كتاب طه باقر (**باقر، ج1** 2009: 279-290).

العصر القديم(عصر فجر السلالات السومرية ((2900 -2370 ق.م)	عصر فجر السلالات الأول	وهو مرحلة انتقالية من حضارة جمدت نصر الشبيهة بالكتابية إلى العصر الكتابي، معرفتنا بهذا العصر مقتصرة على نتائج التنقيبات في منطقة ديالى وينسب إليه نوع من الفخار اسمه (الفخار القرمزي) واستعمال اللبن المستوي – المحدب في البناء، يشير طه باقر إلى احتمال أنّ نوح الطوفان البابلي الوارد في الأساطير السومرية والبابلية كان يعيش في هذا العصر (2900 - 2700 ق.م).
	عصر فجر السلالات الثاني	ابتدأ العصر التأريخي الصحيح في هذه الحقبة، وراح سكان وادي الرافدين يدونون بالمسمارية المتطورة شؤون حياتهم، وشهد هذا العصر ازدياداً ملحوظاً في التطور العمراني والمديني وظهور الحياة السياسية على هيئة دول مدن، ومن بعض السلالات الحاكمة في إثبات الملوك السومريين، كيش الأولى والوركاء الأولى، ويمكن تحديد زمن هذا الطور بالسنين بوجه تقريبي من حدود (2700 إلى 2550 ق.م)، وتميز هذا الطور من الناحية الأثرية والحضارية بطائفة من الآثار المادية والأبنية العامة كالمعابد والقصور، كما كشفت عنه المواقع الأثرية في ديالي. وتطور فن التعدين بشكل لافت، وتحول فن النحت مع نهاية هذا الطور ليتحول إلى فن واقعي بعد أن كان تجريديّاً.
	عصر فجر السلالات الثالث	في هذا الطور بلغت حضارة وادي الرافدين أوج الازدهار والنضج في مقوماتها الأساسية، وخاصة وفرة النصوص الكتابية من حكام السلالات وملوكها، وإليه تعود القبور الشهيرة. وقد ارتأى طه باقر تقسيم هذا الطور المهم إلى مرحلتين أو دورين وهما مرحلة سلالة أور الأولى (ميسا نيبدا) وتميزها المقبرة الملكية الشهيرة في «أور»، ومرحلة أور الثانية (حكام لجش) أي سلالة «أور نانشة»، ويمتد هذا الطور زمنياً ما بين (2500 - 2370 ق.م).

جدول رقم (4)

العصر الوسيط - عصر الهيمنة الأكدية والكوتية (2120 - 2371 ق.م): وقد أسسها العاهل سرجون في (2334 - 2154) أو (2371 - 2230 ق.م)[3]، أي أنّها دامت أكثر من قرن ونصف القرن، وشمل حكمها القطر كله، واتسع بالفتوحات الخارجية إلى الأقطار المجاورة، والأكاديون ساميون نزحوا منذ أقدم العصور التاريخية، وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأقوام الأخرى، وفي مقدمتهم السومريون. وفي غضون ذلك، تبدلت ملامح حضارة وادي الرافدين سياسيّاً من الناحية اللغوية والقومية والسياسية، وظهرت مقومات حضارية

3 إيراد أكثر من تأريخ للعهد بسبب اختلاف المؤرخين في تواريخ الحكم **باقر** (2009 :392).

جديدة، اللغة الآكدية وهي سامية شرقية بدأت تأخذ المكان البارز في اللغة الرسمية. ويعد العاهل «نرام سين - محبوب الإله سين» من أشهر حكام السلالة وهو حفيد سرجون العظيم وله إنجازات على الصعيد الحربي والتشريعي .ويشير باقر إلى تفرد هذا الملك ببدعتين، ما يهمنا فيهما الأولى المتمثلة في أنّه كان يصدر كتابة اسمه بالعلامة الدالة على الألوهية، وسار على هذا العرف من جاء من بعده، وأكثر من ذلك أنّه صار يلقب نفسه بأنّه "إله أكاده" وهذا كان يعد بمثابة الكفر والخروج على العرف الديني، فمن سبقه وفي أقصى تعاظمهم لم يتجاوزوا حد التقديس والتأليه وكونهم نواباً عن الآلهة في حكم البشر (انظر **باقر، ج1** 2009: 385-401).

رأس من البرونز يعتقد أنّه لسرجون الأكادي – موقع ويكيبيديا
http://en.wikipedia.org/wiki/Sargon_of_Akkad

«بعد سقوط الإمبراطورية الأكادية على يد البرابرة الكوتيين المنحدرين من بلاد عيلام الشرقية، دخلت البلاد مرحلة مظلمة استمرت حوالي القرن، ونجحت سلالات سومرية في لجش من تقوية نفوذها وبسط سيطرتها على أجزاء واسعة من القطر وكان أول ملوكها «لوكال أو شمكال» وكذلك الملك العظيم «أور-بابا» الذي أنجز الكثير من الأعمال العمرانية، وعيّن ابنته كاهنة عليا في معبد الإله القمر «ننا» وظهرت في عهده مدرسة جديدة في فن النحت السومري والأدب السومري بلغت ذروتها في عهد «جودية» أو «كودية» وتعد النصوص الأدبية التي خلفها كودية بعثاً جديداً للأدب السومري ومثلت اللغة السومرية في أوج نضجها (انظر **باقر، ج1** 2009: 410 - 412).

تمثال كودية - موقع ويكيميديا
http://commons.wikimedia.org/wiki/File: Gudea_of_Lagash_Girsu.jpg

العصر الحديث (سلالة أور الثالثة 2113 - 2006 ق.م):

"قامت سلالة أور الثالثة والتي دام حكمها زهاء القرن الواحد (2112 - 2004 ق.م) وحكم منها خمسة ملوك، وأعيدت في عهدهم وحدة البلاد السياسية من بعد فترة حكم الكوتيين المظلمة، وهؤلاء الملوك هم:

أور- نمو»: ودام حكمه ثمانية عشر عاماً وهو صاحب الشريعة الشهيرة التي وجدت نسخ غير مكتملة منها في مدينة «نفر».

شولكي: وهو ابن أور نمو، وحكم زهاء ثمان وأربعين سنة، واهتم بالبناء والإعمار، ولقب أيضاً بملك الجهات الأربع، وتم تقديسه بطريقة بالغة حد التأليه أيضاً.

أمار سين: وهو ابن شولكي، ودام حكمه سبع سنوات، وسار على خطى أبيه في العمران.

شو- سين: ربما كان أخ أمار سين، وحكم تسع سنوات، وتوطدت إبّان حكمه أركان الدولة واستمر في تجديد المعابد.

أبي- سين: وهو آخر سلالة أور الثالثة، وقد خلف أباه شوسين، وحكم أربعاً وعشرين سنة، وبدأت تدب خلال سنوات حكمه بوادر الانفصال في الإقليم وعدم الاعتراف بشرعية أور كمركز، بالاضافة إلى

تفاقم خطر العيلاميين واندفاع الأقوام الأمورية من الشمال الغربي للقطر (انظر **باقر، ج1** 416-432: 2009).

«ولعبت المكانة الاجتماعية للمرأة في تلك العصور، والصورة المرسومة لها في ضمير الجماعة دوراً كبيراً في صياغة التصور الديني والغيبي الأول، وفي ولادة الأسطورة الأولى، فمع انتقال السلطة في المجتمع نهائياً إلى الرجل وتكوّن دولة المدينة القوية، ذات النظام المركزي والهرم السلطوي والطبقي المتسلسل الصارم الذي قام على أنقاض النظام الزراعي البسيط، يظهر الآلهة الذكور ويتشكل مجمع الآلهة بزعامة الإله الأكبر، بعد أن كانت الإلهة الواحدة الأم في العصر النيوليتي، ولا يشاركها في سلطانها إلا ابنها الذي نشز منها وكان مقدمة لظهور بقية الآلهة الذكور» (**السواح** 25: 2002).

تمثال نحاسي لأور- نَمّو يصوره وهو يحمل سلة على رأسه في أثناء بناء معبد، وكانت مثل هذه التماثيل تدفن في أسس المعابد لتبقي أعمال الحاكم الصالحة دائماً في ذاكرة الآلهة (**ساكز** 2009 :130).

ومع أنّ هذا الانزياح تم بشكل أوسع كلما ابتعدنا عن عصر سومر وآكد، ولكن يبقى أنّ المرأة تمتعت بكثير من الاعتبار والعديد من الحقوق التي لم يتسنَّ لها الحصول عليها حتى في المدنيّة المعاصرة، فقد استمرت حصانتها المادية في الزواج كواحدة من أهم مظاهر الاستقلالية المالية، فالبائنة التي تفرض على والدها لتكون لها في زواجها وتبقى تحت تصرفها كانت حماية لها، فضلاً عما يقدمه الزوج، فهذه استقلالية للمرأة بملكيتها تمنحها بعداً اقتصادياً يعزز مكانتها في مؤسسة الزواج، وحتى التي تهب نفسها للمعبد ولا يمكنها أن تتزوج تُمنح بائنة الزواج، وهذا يعكس أمرين، وهما أنّ البائنة حق مكتسب للمرأة سواء تزوجت

أم لا، وبأنّ وهبها نفسها لتكون للمعبد ولطقس البغاء لا يعني أبداً أنّها تمارس الدعارة، ولا يعني أنّها صارت غانية، بل هي تقدم طقساً دينياً تعبدياً له بعده الروحي، وله اعتباره على مستوى المجتمع وعلى مستوى المعبد، وهذا ما سيأتي عليه البحث في المطلب الثالث ومن خلال النصوص والأساطير في الفصل القادم.

اشتهرت مدينة أور بالزقورات وهي عبارة عن أبراج بابلية ما زالت أطلالها فوق التل. وكان بها 16 مقبرة ملكية شيدت من الطوب اللبن - موقع المعرفة
http://www.marefa.org/index.php/أور

ثانياً- لمحة موجزة عن الحضارة البابلية والآشورية

"يمتد عصر الحضارة البابلية من الفترة التي أعقبت سقوط إمبراطورية "أور" (سلالة أور الثالثة) في حدود 2004 ق.م، وكان عصر دول مدن أو دويلات حكمت متعاصرة ومتحاربة إلى أن توحدت في عهد حمورابي (1792-1750 ق.م)، وتميز هذا العصر بدخول الهجرات من الأقوام السامية، وطغى التحول اللغوي والقومي في العراق إلى السامية على الطابع السومري، وانتهى السومريون من الناحية السياسية، ولعل أبرز النتائج التي استتبعت زوال السومريين سياسياً، واتساع رقعة التدوين باللغة الآكدية هو ظهور حركة واسعة في التدوين والتأليف والنقل والترجمة، وكأنّهم شعروا بزوال الثقافة السومرية فأخذوا يدونون مآثرها وينقلون النصوص الأدبية واللغوية والدينية، ومنها ما دوّن بالسومرية والكثير تم ترجمته وتحريره لإنشاء قطع أدبية جديدة باللغة البابلية على هيئة نتاج فني أدبي جديد مثل ملحمة جلجامش وأساطير الخليقة" (**باقر، ج1** 2009: 48).

ونظراً إلى كون ما سيتبع من البحث في الحديث عن التشريع وعن الدين والأساطير، كان لابد من ذكر السلالات التي حكمت في تاريخ بابل القديم وخاصة آشور، حتى يكون هناك توضيح دقيق لصلة الأسماء المختلفة للنساء اللواتي شغلنَ مناصب عديدة في الكهانة وفي الحكم وفي الآداب، وكذلك في تحديد مرجعية التشريعات التي طالت المرأة والأسرة وعكست أحوالها ومكانتها وأهميتها، فالمادة القانونية التي تركتها لنا حضارات الرافدين ساعدت بل وشكلت المادة الأهم التي عكست طبيعة العلاقات الاجتماعية ومكانة المرأة، وانزياح هذه المكانة مع العصور وخاصة كلما اتجهت نحو النهايات، ونقصد بها سقوط بابل، حيث نجد أنّ الاتجاه بالتشريع والقوانين ينحو باتجاه المزيد من سلب المرأة حقوقاً كانت تتمتع بها من عصر إلى آخر، بل وحتى المسميات والمفاهيم العديدة تتخذ معاني جديدة مرتبطة بالمكانة الجديدة، فالكاهنة التي كانت تقدم طقس الجنس المقدس كواحد من الخدمات الدينية في ظل دين الإلهة ستصبح بغياً، ويتحول الجنس المقدس إلى جنس تجاري «دعارة» وتتحول هدية العرس إلى ثمن للعروس، وتتحول البائنة من أملاك يقدمها والد العروس لتحميها وتحصن مكانتها الاقتصادية واستقلاليتها إلى هدايا وموائد وولائم في يوم عرسها.

وكسائر حضارات الرافدين، مرَّ التاريخ البابلي بعصور ثلاثة قديم ووسيط وحديث، وكذلك دولة آشور التي عاصرت الحضارات الأخرى وتبادلت الصراع معها فانضوت تحت راية حمورابي حيناً وتسيدت تحت راية شمشي أدد حيناً آخر، وهكذا إلى أن انتهى العصر البابلي الحديث الذي رسم ملامحه نبوخذ نصر آخر قائد متميز بقيادته وبحكمه، لتنحدر الحضارة البابلية بعده رويداً رويداً نحو الضعف والانحلال لتسقط في عام 539 ق.م.

"يطلق اسم العصر البابلي القديم على الفترة الزمنية الواقعة ما بين نهاية سلالة أور الثالثة (في حدود 2004 ق.م) حتى نهاية سلالة بابل الأولى (في حدود 5/ 1594 ق.م) وتأسيس الدولة الكيشية أو سلالة بابل الثالثة. وابتدأت بتدفق موجات الآموريين من بوادي الشام والجهات العليا من الفرات وتحطيم الكيان السياسي في وادي الرافدين وقيام عدة دويلات صغيرة متحاربة ظلت حتى ظهور الملك البابلي الشهير "حمورابي" في حدود 1763 ق.م" (**باقر، ج1** 2009: 441).

«وخلال حكم شمشي - أدد الآشوري، وصل حمورابي إلى عرش بابل، التي لم تكن في ذلك الحين سوى مملكة صغيرة في شمال البلاد، وبرغم أنه بقي خلال العقد الأول من حكمه شخصية غير معروفة، فقد سمح له التحالف مع شمشي - أدد القوي إما كشريك أصغر أو تابع بأن يقوم ببعض التوسعات، وبعد وفات شمشي-أدد أطلق حمورابي يده وأزاح عنه القيود في مواجهة خصومه، وبالصبر الذي تمتع به والدبلوماسية العالية والسياسة الحكيمة أصبح أعظم قوة في وادي الرافدين، وسيطر على مساحة مماثلة لمساحة إمبراطورية أور الثالثة القديمة» (**ساكز** 2009: 48).

اشتهر حمورابي بقوانينه التشريعية التي أخذت شهرة أكبر بكثير من أي قوانين أخرى سنّها ملوك من قبله على الرغم من أنّ هناك العديد من القوانين سبقته، والسبب في ذلك أنّها تم العثور عليها كاملة، في حين وصلت أجزاء متقطعة ومبعثرة من القوانين الأخرى.

ويشير ماكنيل وسيدلر إلى أنّ «قوانين عديدة سابقة لحمورابي لم تصل منها إلا أشتات، مثل قوانين أوركاجينا في لجش(2360 ق.م) وسرجون الأكدي (2300 ق.م) وأورنمو في مدينة أور (2100 ق.م)، بالإضافة إلى قوانين لبت عشتار ملك إيسين (1930 ق.م)، والتي كانت نوعاً ما أكثر شمولية والتي وصلنا منها ثمانية وثلاثون قانوناً ومجموعة مدينة إشنونا التي تحتوي ستين قانوناً والتي سبقت في تاريخها حمورابي بعدة عشرات من السنين" (**مجموعة مؤلفين، ماكنيل وسيدلر:** 1993 9).

تمثال حمورابي في أعلى المسلة – موقع ويكيبيديا
المسلة موجودة بالكامل في متحف اللوفر في باريس
http://en.wikipedia.org/wiki/Hammurabi

آشور بانيبال في مشهد صيد الأسود – موقع ويكيبيديا
http://ar.wikipedia.org/wiki/آشوربنيبال

مرت دولة آشور أيضاً بمراحل مشابهة لبابل وكانت دولة آشور كلمة أطلقت على أقدم مراكز الآشوريين أي مدينة آشور، وسُمي بها أيضاً إلههم القومي "آشور" منذ طلائع الألف الثالث قبل الميلاد، انتهت حضارات وادي الرافدين بالعصر البابلي الحديث (626-539 ق.م) والتي دامت زهاء القرن الواحد، وكان آخر عهد مستقل ومزدهر لحضارة بلاد الرافدين القديمة، وفي الوقت نفسه آخرها. ونوجز المادة التاريخية التي أوردها طه باقر عن سلالات بابل القديم في الجدول رقم 5 (انظر **باقر، ج1** 2009: 447-465).

أولاً - العصر البابلي القديم	سلالة «أيسن» ومؤسسها «اشبي-ايرا» (2017-1794 ق.م)	من أشهر ملوكها «لبت عشتار» (1934 - 1924 ق.م) الذي اشتهر بإصدار شريعته الخاصة التي سبقت حمورابي بنحو قرنين.
	سلالة «لارسة» ومؤسسها «نبلانم» (2025- 1763 ق.م)	وهي الدويلة المعاصرة لأيسن وحكمها أربعة عشر ملكاً.
	سلالة «اشنونا»-1761 (2000 ق.م)	من أغنى مناطق عصر فجر السلالات وأخصبها، واكتشفت فيها في تل حرمل مجموعات كبيرة من ألواح الطين المتنوعة من الوثائق والعقود التجارية والقانونية والاقتصادية والمعاملات الأخرى والرسائل، ونسخة من الشريعة العائدة إلى مملكة أشنونا التي تعود إلى (1850 -1900 ق.م).
	بلاد آشور (2000 - 1760 ق.م)	تأسست على يد الملك «شمشي-أدد» الذي كان من أصل آموري، الذي نجح في بسط نفوذ مملكته على الأجزاء الوسطى من دجلة والفرات ومزاحمة ممالك أشنونا ولارسة وبابل الأولى.
	سلالة «ماري» (1850 - 1761 ق.م)	من أشهر ملوكها «يجد- لم» ومن ثم ضمتها الدولة الآشورية في عهد شمسي – أدد.
	سلالة بابل الأولى (1894 - 1595 ق.م)	مؤسسها «سومو-آبم» وأشهر ملوكها حمورابي (1792 – 1750 ق.م)
	سلالة الوركاء (1860 -؟ ق.م)	ومؤسسها «سين-كاشد» وهو أقدم ملوكها، وقامت في مدينة الوركاء وخلف مآثر بنائية مهمة منها معبد للإله «لوكال بندا» والبناء الديني المخصص لكاهنات المعبد المسمى «كي –باركو» وعين فيه ابنته كاهنة عليا (Nin-Dinger).
	سلالة «دير»	انتهى استقلال هذه المملكة على يد الملك أيسن «ادن – دكان»
	سلالة «ملكَيئم» و«كيش» و«سبار»	

جدول رقم (5)

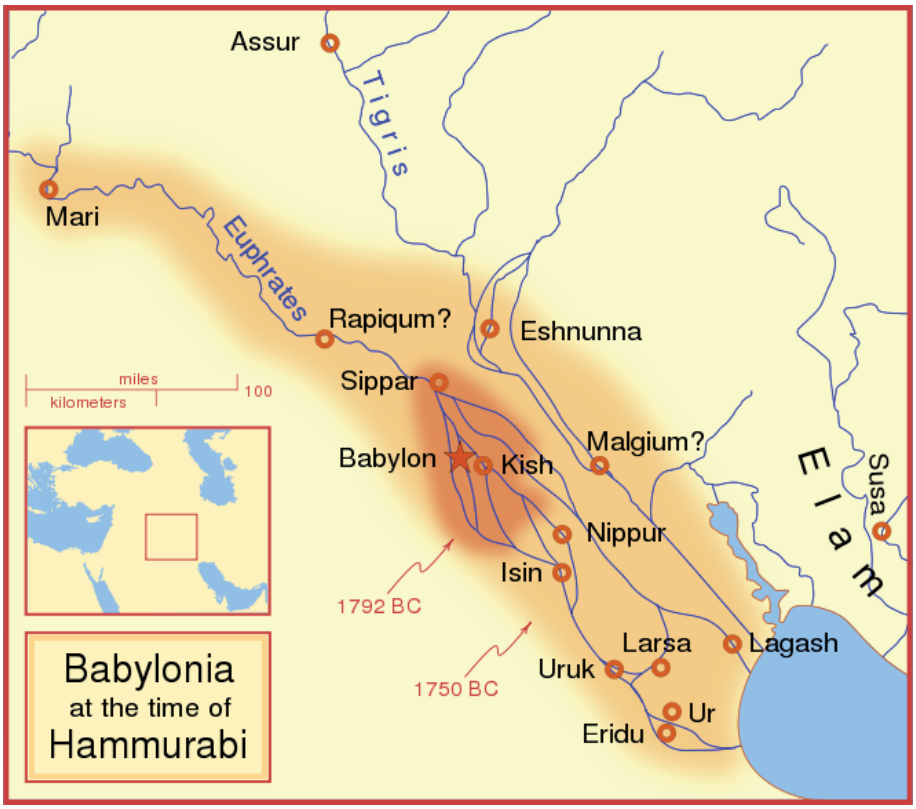

خريطة توضح دويلات حضارات وادي الرافدين في فترة حكم حمورابي –موقع المعرفة
http://www.alnoor.se/article.asp?id=179307#sthash.oCgu18iH.dpuf

ثالثاً- مكانة المرأة على الصعيد الاجتماعي

على الرغم من أنّ التغيير في مكانة المرأة وانزياح مكانتها كإلهة بدأ من العصر الحجري النحاسي، كما يفترضه البحث، إلاّ أنّ انزياح مكانتها بالكامل على الصعيدين الحضاري والميثي لم يحصلا خلال فترة قصيرة، بل تمّ ذلك عبر فترة امتدت لتغطي عصور حضارات كاملة، وصولاً إلى غياب دور المرأة بالكامل على صعيد القيادة والحكم ومن ثم المؤسسة الدينية، وكذلك تدني مكانتها الإنسانية، والاكتفاء بأنّ لها دوراً منحصراً في الحمل والولادة، عدا التمييز بسبب الجنس وتحميلها إثم الخطيئة الأولى وغضب الإله.

وسيتتبّع البحث مؤشرات مكانة المرأة المتميزة التي أسست لها العصور السابقة لاختراع الكتابة والتي أسهمت فيها المرأة بالاستقرار الاقتصادي وبناء المدن الأولى، وهو ما ترك آثاره الإيجابية في عصور سومر وأكد وبابل وآشور على الرغم من تشكل النظام الأبوي على نحو واضح، وسيطرة الرجل على الأسرة، وسيطرة الملك على مقاليد الحكم وبموافقة الإله، بحيث كانت الإصلاحات والقوانين التشريعية التي تأخذ قوتها من قوة الملك وإحكام سيطرته على مقاليد الحكم.

واحتفظت المرأة لنفسها بالاستقلالية الاقتصادية، ولمعت في ميدان الأدب والكهانة والحكم وهذا كان واضحاً، وبخاصة في الحضارة السومرية التي سجلت نسباً حضارية مرتفعة في الرقي بدور المرأة وإبراز مكانتها الاجتماعية والدينية، فهي الإلهة الأم، مصدر الحياة وأصل الموجودات، وهي المقدسة والكاهنة، ما انعكس على المستوى الاجتماعي، فتمتعت بحقوق واسعة وصلت حد تعدد الأزواج وتبنِّي الأطفال. وعلى الصعيد الاقتصادي تميزت بحقوق التملك والاشتغال بالتجارة، وتقاضت أجر الرجل نفسه في أعمال الحقول. وعلى الصعيد الثقافي اشتهرت كاتبةً وعازفة موسيقى، وتقلَّدت المناصب العليا.

بيد أنّ هذه المكانة بدأت تتراجع مع زحف التسلط الذكوري على مجتمعات وادي الرافدين وظهور العنف والفتوحات والحروب. «ورغم أنّ النصوص القديمة (Archaic) الأولى التي جاءت نماذج منها من العصر الشبيه بالكتابي من مناطق مختلفة، كانت عبارة عن سجلات اقتصادية بالدرجة الأولى، وأنّ ما فيها من معلومات عن المرأة نزر بشكل واضح. وما لدينا من وثائق مكتوبة تلقي الضوء على بعض النواحي الاجتماعية للمرأة تعود إلى عصر الحاكم أوروكاجينا (2378 -2371 ق.م) آخر أمراء سلالة لجش" (**عقراوي** 1978: 30).

إلا أنّ المرحلة اللاحقة من تاريخ بلاد الرافدين، وبخاصة بعد اختراع الكتابة وصلنا منها مخزون كبير من الآثار التي ساعدت أيضاً في كشف حضارة سومر بصورة أوضح، حيث كانت الأساطير تنسج حكاية العالم القدسي وتعزز أدوار الآلهة، وعلى الرغم من أنّ أساطير سومر لم تصل بشكل كامل، إلا أنّ حركة الترجمة والنسخ والتدوين التي تمت في العصور اللاحقة أسهمت في الوصول إلى أساطير سومر وفهمها بشكل أكبر، إضافة إلى نصوص القوانين والتشريعات والأدب مع بقايا المعابد والأختام والقبور الملكية بحيث اكتملت الصورة بكل معانيها. وتركت لنا العصور البابلية واحدة من كنوز التاريخ وهي الإينوما إيليش التي تكمن أهميتها في العثور عليها بألواحها السبعة شبه كاملة، إضافة إلى النص التشريعي المتكامل الأول في التاريخ المعروف باسم شريعة حمورابي والتي وصلتنا كاملة، وإن كان هذا لا يستبعد استفادة حمورابي من القوانين التي سبقته في سومر وأكد.

ولعل من الأهمية التنويه إلى أنّ أسطورة الخليقة البابلية، كما سيتبيّن، لاحقاً ليست، في جوهرها سوى إعادة تأليف لأسطورة الخليقة السومرية لكن بروح العصر البابلي، ما عكس انزياح مكانة الأنثى بالشكل الكامل من ساحة الألوهة المقدسة، وبالتالي ستكون أسطورة الخليقة معززة لظهور الإله مردوخ المتفرد من ناحية، ولانزياح مكانة المرأة في المجتمع على صعيد العائلة، وعلى صعيد السلطة، وعلى الصعيد الديني.

بل حتى إنّ «فكرة الخلق مع مردوخ تحولت من الفرج إلى الفم» (**الربيعو** 152: 1995). ويؤيده في ذلك السواح الذي يقول إنّ «عشتار لم تخلق مظاهر الطبيعة بكلمتها بل بتحول جسدها الذي نشأت عنه السموات والأرض، إنّ حركة الطبيعة، جسد الأم الكبرى، لتستوعبها حركة الجسد الإنساني وسكونية العقل،

وما يقوم به دراويش المتصوفة المسلمين اليوم من رقص دوراني على إيقاع الموسيقى ليصلنا بالتصوف العشتاري القديم، حيث يستنير الجسد بأنوار الرحمن، وهو في ذروة أفراحه الأرضية» (**السواح** 242: 2002).

اعتمد البحث تقسيم هذا المطلب إلى أربعة عناصر تشمل الصعيد العائلي والثقافي والاقتصادي والسياسي، وعزل الصعيد الديني ليكون من خلال المطلب الرابع في المبحث الثاني لارتباطه بالأسطورة.

أ ـ على الصعيد العائلي

يعتقد بعض الباحثين أنّ تشعب حياة الفرد في وادي الرافدين، مع تطور الزراعة، واتساع الملكية، وتشكل المدن، وتشابك مصالح السكان والمعبد والكهنة، كان السبب من وراء نشوء تشريعات لحماية الفرد في المجتمع، وتنظيم شؤون الحياة في دولة المدينة (City-state). ولكن في إمكان المراقب أن يلحظ بأنّ تغير الظروف الاقتصادية، وتطور المدن، وتراكم الثروات، وبدء الحروب، والتوسع العسكري كان له تبعاته على مستوى التشريع في العائلة التي شكلت النواة الأساسية للتشريع في النظام الأبوي.

واتخذت القوانين والشرائع في البداية شكل إصلاحات، فقد وضع أور- كاجينا (2378-2371 ق.م) الحاكم السومري لسلالة لجش إصلاحات اجتماعية تنظم حياة الأسرة ومكانة المرأة في مجتمع دولة المدينة السومرية، إضافة إلى تنظيمه الشؤون الاقتصادية وحده، من دون سيطرة المعبد وكهنته على شؤون الدولة المالية.

برز أور- كاجينا كأول مصلح في التاريخ، حيث عاهد الإله ننجرسو على أن لا يترك "**الضعيف والأرملة للقوي**» (**باقر، ج1** 2009: 356)، وهذا مؤشر واضح على أنّ المرأة شكلت محوراً أساسياً في تعهدات الملك أمام الإله كبرنامج عمل يتعهد الإيفاء به لشعبه.

لقد ظهرت في حضارات وادي الرافدين خمسة ألواح قوانين متميزة، وما جمع بينها أنّها كانت قوانين لملوك السلالات المختلفة، وكانت تكتب على الألواح الطينية أو على المسلات، وبدأت بشكل إصلاحات بعهد أوركاجينا، لتصبح قوانين فيما بعد، فكانت على التوالي: إصلاحات أوركاجينا، ثم قوانين أور نمّو، فقوانين لبت عشتار، وقوانين أشنونا، ثم قانون حمورابي، والقوانين الآشورية التي اعتمدت على الكثير من مضمون شريعة حمورابي، مع بعض الإضافات والتشديد في بعض الأحكام، ما يعكس الحالة المتقدمة من الرجل المحارب القوي الذي انعكس في عقوبات متشددة.

"وبناءً على النسخ الناقصة للقوانين المكتوبة في بابل قبل حمورابي والتي تم اكتشافها حتى الآن والتي يغلب الظن أنّها غير كاملة، فمن الممكن أن نحكم على الحد الذي استفاد منه حمورابي من أعمال من سبقوه،

إذ إنّ ثلاثة أرباع قوانين إشنونا قد أعيد تطبيقها إلى حد ما في عدة قوانين أولية من مجموعة حمورابي، لكن من الصعب أن نحدد عدد المصادر الأخرى التي قد كان من الممكن أن تكون بمتناول مشرّعيه'' (**مجموعة مؤلفين، ماكنيل وسيدلر** 10: 1993).

لقد حوت شرائع بلادين الرافدين كل ما يتعلق بالتشريع المدني المتعلق بالزواج واشتراطاته ومتعلقاته المالية، والطلاق والتبني والخيانة والهجران والنكوس في عهد الزواج والميراث وحقوق الأرملة والتي سيكون هناك توقف عند بعضها في نصوص مختارة من الشرائع في الفصل الثالث.

إنّ المدخل الحقيقي لفهم موقع المرأة في الحضارات من سومر إلى آشور مروراً بأكد وبابل قد يكون التشريعات، فهي تعكس بنية المجتمع وطبيعة العلاقات وتعكس أيضاً، بطريقة غير مباشرة، ما كان سائداً في فترات سابقة. فحين يُشَرّع أوركا- جينا في فترة تعود لأكثر من ألفي سنة قبل الميلاد بأنّ المرأة إن تزوجت أكثر من رجل في آنٍ واحد ستعاقب، يعتبره جمهور من الباحثين بأنّه مؤشر على أنّ الزواج المفتوح للمرأة كان مشرعاً في الحقب السابقة، وهذا قد يتناسب مع ما ذهب إليه البحث من كون المجتمع كان أموميّاً تتمتع فيه المرأة بالمكانة المتميزة السياسية والدينية وحتى الاقتصادية، فكون النسب يعود إلى الأم فلن يؤثر ذلك في مقاييس انتقال الثروة باعتبارها تتم من الأم إلى الأبناء، وقد يكون هذا ما جعل المجتمع يتحول إلى سحب النسب من يد المرأة ووضعه في يد الرجل، وبالتالي تطلب الأمر أن يُحدد الزواج برجل واحد، وانتقلت الملكية شيئاً فشيئاً لتكون من نسله.

عقراوي ألمحت للأمر لدى استعراضها الوضع العائلي للمرأة منذ حضارة سومر، فأشارت إلى ''أنّ تعدُّد الأزواج للمرأة الواحدة كان مُباحاً، إلى أن حرَّمه أوركاجينا وفرض عقوبة الرجم بالحجارة على من يثبت زواجها بأكثر من رجل واحد» (انظر **عقراوي** 1978: 20-23).

وقد يتفق مع هذا الرأي ما ذهب إليه ويل ديورنت عندما طرح سؤالاً مفتاحيّاً وهو «ما الذي حدا بالناس أن يستبدلوا بالحالة البدائية التي كان الزواج فيها أقرب إلى الفوضى، زواجاً فردياً؟ وفي محاولته الإجابة عن هذا الطرح، يحيل الموضوع إلى العامل الاقتصادي المرتبط بنشوء نظام الملكية، فالزواج الفردي جاء نتيجة لرغبة الرجل في أن يسترق لنفسه رقيقاً بثمن رخيص، وفي نفس الوقت لعدم توريث ملكه لغيره» (**ديورنت، ج2** 1988: 70).

ولعل أهم مفصل من مفاصل «الانقلاب الذكوري» أنّ العصور النيوليتية، كما اتفق الباحثون، شهدت سيادة النظام الأمومي، وكان النسب يعود إلى الأم على الرغم من أنّ العديد من الباحثين كان لوقت قريب ولا يزال يؤمن بأنّ المجتمع نشأ أبويّاً، معتبرين الرجل صياداً وقادراً على القيادة بالفطرة وبحكم قوته البيولوجية، وهو ما قوضته العديد من النظريات، كما أشارت إلى ذلك غيردا ليرنر في كتابها **نشأة النظام**

الأبوي، حيث بيّنت أنّ العديد من الدراسات أثبتت بأنّ الغذاء الذي يحتاجه الأفراد كان يتم تأمينه من الطرائد الصغيرة التي كانت المرأة والأطفال يتولون القيام بجمعها. وكون الرجل اختص بالحروب فذلك ليس لتميزه جسدياً، بل لكون المرأة كانت مصدر النمو والتمدد للقبيلة، فمع معدل أعمار لا يتجاوز الثلاثينيات، كما تشير الأبحاث لتلك الحقبة، انتبه الرجل إلى حاجته للحفاظ على الأنثى لأنّها الحماية والضمان لإنجاب الأبناء والكثرة العددية.

وتتبنى ليرنر نظرية الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس بأنّ تبادل النساء في المجتمعات القبلية كان السبب الرئيس في خضوعهن، وهذا يضاف إلى ما تعرضه عن س.د. دارلنغتون الذي يرى الزواج من الأباعد إبداعاً ثقافياً وصار مقبولاً لأنّ فيه فائدة نشوئية، فهناك ميول غريزية عند البشر للتحكم بالسكان للوصول للكثافة المثلى، وتنجز القبائل هذا بطقوس تضع الذكور والإناث في أدوار جنسية ملائمة، وعبر اللجوء إلى الوأد والإجهاض والمثلية الجنسية حين يقتضي الأمر، وبحسب هذا الاستنتاج النشوئي جوهرياً، جعل التحكم بالسكان السيطرة على جنسانية الأنثى إلزامية (انظر **ليرنر** 103: 2013).

إنّ إخضاع المرأة بدأ بالجنس، لأنّ اكتشاف الرجل دوره في العملية الجنسية أتى في فترة لاحقة. وساهم تفرد المرأة بالولادة وحدوث الطمث معها وتبدل أحوالها وعلاقتها بالأطفال في تشكيل هالة حولها من التعظيم جعلت منها الصورة، في المتخيل الإنساني، عن الإله، ولكن ومع تدجين الحيوانات اكتشف الرجل ذلك من خلال مراقبة المشهد، بل وأكثر من ذلك فإنّ العديد من الباحثين المتخصصين يعزون ميول الرجال لاغتصاب النساء إلى مراقبتهم الطريقة الوحشية التي تقوم بها الحيوانات بالعملية الجنسية، والتي أسست للعنف وللتحكم بالسيطرة على النساء بالجنس، وأسست للتفوق الذكوري.

"لقد قدمَّ المنظرون فرضيات متنوعة ليشرحوا نشوء الرجل المحارب، منها ما عزي لسبب هرموني بيولوجي، ومنها ما هو سيكولوجي للتعويض عن عدم مقدرته بالإنجاب فيعوض ذلك بالهيمنة الجنسية على المرأة والاعتداء على الآخرين، وقد رأى فرويد أنّ جذر العدوانية الذكرية يكمن في المنافسة الأوديبية بين الأب والابن على حب الأم، وسلّم أن الرجال بنوا الحضارة لكي يعوضوا إحباط غرائزهم الجنسية في الطفولة. وتأثرت بذلك الكثير من دعاة المذهب النسوي مثل سوزان براونميلر التي قالت بأنّ قدرة الرجال على اغتصاب النساء قادت إلى ميلهم لاغتصاب النساء، وهذا قاد للتفوق الذكوري، بينما إليزابيت فيشر فترى، على نحو بارع، بأنّ التزاوج الإكراهي للحيوانات قاد الرجال إلى فكرة اغتصاب النساء، وزعمت أنّ الوحشية والعنف المرتبطين بتدجين الحيوانات قادا إلى هيمنة الرجال الجنسية ومأسسا للعنف. وقدمت في وقت لاحق ماري أوبراين تفسيراً متقناً لأصل الهيمنة الذكرية في حاجة الرجال السيكولوجية لكي يعوّضوا عدم قدرتهم على الإنجاب عبر إنشاء مؤسسات هيمنة، ومثل فيشر أرجعت ذلك إلى فترة اكتشاف تدجين الحيوانات" (**ليرنر** 101: 2013).

إذاً الرجل أخضع المرأة واستفاد من الزواج التبادلي لتقوية نفوذه، وشيئاً فشيئاً بدأ ترتيبات القرابة العائلية أو المنحدرة من الأم تنتقل إلى الأب، وبالتالي تطورت الملكية الخاصة، وإن كان الترتيب بين من الذي حدث أولاً كان موقع خلاف، إلا أنّ تراكم الفائض وظهور الطبقات وإنتاج السلع والتجارة وبزوغ النخب العسكرية أدى إلى انتقال الأنساب إلى العائلات الأبوية، ما أدى إلى اخضاع النساء.

وفي السياق ذاته، وبالعودة إلى بلاد الرافدين، وفي تحليله لملحمة جلجامش يشير علي الربيعو «إلى أنّ نصّ ملحمة جلجامش، وعبر سياقه المتنامي بسرعة، ينزع باتجاه فرض قيود على الجنس المطلق الذي تجسده عشتار في سلوكها، فتسقط الملحمة في براثن جنسانية تربط الجنس بالإنجاب وتستبعد من دائرتها كل معمودية بالجنس، وكل محاولة للذة خارج الأطر الجديدة التي عرّفها الإله الجديد، أو لنقل البطرك الجديد. فالزواج، والذي هو شكل ثقافي ووليد صيرورة تاريخية وتطور تاريخي طويل، يتجاوز العلاقة الطبيعية ويتبارك بمباركة البطرك «الإله المنتصر على الإلهة الأنثى»، وعليه فهذا التقييد يخدم مصالح نظام اجتماعي ذكوري ويقود إلى أنّ تنزل المرأة في المرتبة الاجتماعية وتنعزل في البيت فتفتقر بانحصارها في الإطار المنزلي إلى حرية الوصول إلى أنواع السلطة أو المركز أو القيمة الثقافية التي هي من امتيازات الرجل» (**الربيعو** 1995: 153).

«وحافظ قانون حمورابي على الأسرة وعلى الأحادية الزوجية، إلا في حالات خاصة لاعتبارات الإرث، وأولاد الرجل من الأمة لا يصبحون أحراراً إلا إذا تبناهم رسمياً، ولا تصير المرأة زوجة إلا بعقد مكتوب، يقدم العريس هدية الزواج للمرأة تنفعها إذا مات، بينما يقدم والد العروس بائنة هي في الجوهر أكبر من المهر، وهي تمثل حصتها في ميراث أبيها، وتدفع أيضاً للابنة إن صارت كاهنة، وبذلك يكون الزواج بالنسبة للمرأة مجالاً للملكية الخاصة بها، والواجب الأساسي للزوجة هو الإنجاب، فإن لم تقدر عليه كان بإمكانه أن يطلقها» (**ساكز** 159: 2009).

وباستثناء ذلك، يُلاحظ أنّ التشريعات اجتهدت لتشكّل نوعاً من الحماية المالية للمرأة، ففي شريعة **أور-نمّو** عدد من المواد القانونية تعالج حقوق المرأة البكر والمتزوجة والمطلقة. ولم تغفل شريعتا لبت- عشتار وأشنونا، المرأة وشؤونها العائلية، وخصصت شريعة حمورابي أكثر من ثلاثين مادة قانونية (المواد 127-194) لشؤون الأسرة، والمرأة بالذات، من زواج وطلاق وإرث وتبنٍّ، وحمايتها من أنواع الاعتداء.

لقد شكلت الأسرة كياناً مهمّاً منذ عصر سومر، وظهرت قوانين الزواج والطلاق والتبني والمهر و»البائنة» والخطبة والهدايا، والمعيل للمرأة، إذ أظهر النسق الاجتماعي كل الحرص على وجود عائل للمرأة وبشكل إلزامي، وضمن لها حقوقها الزوجية في حالة الطلاق أو وفاة الأب أو الزوج.

«وبالنسبة للرجل أيضاً كان أساس الزواج في حضارة وادي الرافدين يقتصر على واحدة وهي التي تدعى الزوجة الشرعية (المختارة (Hirtu)). وكانت الفتاة خاضعة لسلطة الأب، حيث لم يكن بإمكانها الزواج دون موافقته، ليس هذا فحسب بل كانت موافقة الأم واجبة أيضاً ولا يتم العقد من دونها، فضلاً عن أنّ كل ما يتم الاتفاق عليه يعتبر ملزماً ولا يجوز التراجع عنه" (**عقراوي** 1978: 60).

ولكن الرجل تمتع بوجود امتيازات عديدة تتلاءم مع النظام الأبوي الذي منحه التميز والسيطرة، فله محظية ويمكن أن ترتقي لتصبح زوجة، وفي حال عدم إنجاب زوجته يمكن أن تكون له جارية تلد الأولاد وتكون بمرتبة ثانية من بعد الزوجة، كما سيأتي ذكره في موضع آخر لاحق.

لقد تمت قوننة الزواج، وبالتالي الطلاق وجميع حيثياتهما، بصورة حفظت استقلالاً مالياً للمرأة، وحفظت حقوقها وحقوق أبنائها في حالة الطلاق والترمل، ولا شك في أنّ القوانين ميزت بين حق الزوج وحق الزوجة، ومنحت الرجل ميزات أكبر، لكنها في الغالب تناسقت مع مجتمع أبوي بكل معنى الكلمة، لكنه يحتفظ بهالة القدسية للإلهة الأنثى وللكاهنة على أنواعها، لذا كان بقاء هذا الاستقلال المادي في البائنة التي كان يقدمها الأب لابنته دليلاً بما يكفي على ذلك.

فالأب كان ملزماً بتجهيزه ابنته، وكان على إخوتها، عند موت الأب، الالتزام بإحضار بائنة لها حال زواجها، وتحريرها إذا كانت في خدمة شخص آخر رهناً لديْن على الأب، وإن فشلوا في ذلك كان في استطاعة الدائن الزواج منها ولكن بعد تحريرها، ويقام عند الخطبة احتفالٌ يصب فيه الخطيب عطوراً على رأس الفتاة، ويقدم لها الهدايا من الحلي، ومنذ هذه اللحظة تلزم بيت حماها، وإذا مات الخطيب فعليها أن تتزوج من أحد إخوته البالغين أو الأحفاد اللائقين، وإن لم يوجد وفي حالة موت حموها فلها العودة إلى بيت الأب، على أن يرد جميع الهدايا عدا المواد الغذائية، ومن المستطاع كذلك فسخ الخطبة مع رد الهدايا، ولم يكن من حق الخطيب الزواج بإحدى أخواتها، في حالة موتها، كنوع من الاستبدال. وفي بعض الأحيان كانت المرأة المتزوجة تسكن في بيت أبيها، ويلتزم هنا الزوج بدفع حصة في نفقات البيت ويحتفظ لها كذلك بصداق وتصبح متضامنة معه في كافة التزاماته، ويدفع لها مؤخراً يصبح ملكاً لها في حالة الطلاق، وحين تذهب الزوجة لتعيش في بيت زوجها فإنّ بائنتها وكل ما أحضرته من بيت أبيها وكل هداياها يصبح من حق أولادها، ولا حق لإخوة الزوج فيه (انظر **بورت** 1997: 289-290).

ولا بد من الوقوف عند موضوع حصول المرأة على «البائنة» هبةً من والدها، والتي كانت تمثل حصتها في ميراثه عند زواجها، وكذلك يمكنها أن تحصل عليها في حال تحولها إلى كاهنة، هذه البائنة شكلت الحماية الاقتصادية الأهم للمرأة، والتي عززت من مكانتها الاجتماعية، فقد كان يحق لها أن تتصرف بها كما تشاء وتبقى باسمها دون أن يحق للزوج تحويلها لاسمه، ويرثها أبناؤها، وإن لم يكن لها أبناء فإنّها إن ماتت تعود البائنة إلى أبيها، وكذلك هبة الزوج لها من ممتلكاته على حياته وذلك لمنع الأولاد من الاستيلاء على

حصتها. وفي العصر البابلي الحديث كانت المرأة تستطيع أخذ هديتها بعد وفاة زوجها إن أرادت الزواج من آخر، ولكن في حال وفاتها يوزع ميراثها من كل زوج على أبنائه، في حين توزع بائنتها من والدها على كل أولادها من الزوجين، وهذا يدل على أنّ ما تأخذه المرأة من زوجها أو والدها يبقى في تصرفها وتحت اسمها ودون أن يتم الخلط بينهما، ما يمنح حماية اقتصادية مهمة جداً للمرأة، وهو ما يعلّل أيضاً سبب منح الابنة هبة من الأب إن كانت ستصبح كاهنة فهي ستُحرم من بائنة الزواج بتحولها لكاهنة.

وتشدد مجتمع وادي الرافدين في حماية المرأة من الاغتصاب، فكان يحكم على مغتصبها بالموت إن ثبتت عليه الجريمة، وكان هناك نوع من تقديس مؤسسة الزواج، فالزوجة التي تزور مسكن عشيقها يحكم على كليهما بالموت، والتي تمارس الرذيلة في مواخير تُترك لعقاب الزوج على أن يعاقب العشيق في حال علمه بأنّها متزوجة، وكان من حق الزوج العفو عن الاثنين، وفي حال قيام الزوج باتهام زوجته بالزنا وثبت أنّها بريئة، فإنّه يعرض نفسه للعقاب الذي يصل إلى حد الموت، وفي حال قيامه بذلك، أثناء الشجار، فإنّه يعد ظرفاً مخففاً إذ يعاقب القاذف بخمسين ضربة عصا، ويؤدي عملاً شاقاً لمدة شهر في السخرة الملكية، ويدفع وزنه رصاصاً ويشوه تشويهاً واحداً (انظر **بورت** 1997: 291-292).

أما في ما خص عملية تبني الأولاد فكان ذلك ممكناً أمام الكاهنة لانتقال الثروة، أما للمتزوجة فإن لم يكن بإمكانها الزواج فيمكن أن تقدم لزوجها جارية تنجب له أولاداً ويستمر ميراثه فيهم.

«ومع أنّه من المعروف في حضارة وادي الرافدين أنّ المرأة الزانية تعاقب بالقتل، إلا أنّ ذلك يكون بناءً على موافقة زوجها، فكان من حقه أن يعفو عنها وأن يطلقها دون أن يدفع لها صداقها، أو أن يعتبرها أمَة، أي يحرمها من حقوقها كحرة» (**عقراوي** 1978: 144).

وكان للمرأة من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه، وإذا غاب زوجها، ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها، كانت تدير هي المزارع كما تدير البيت. وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها، وأن تحتفظ بعبيدها، أو أن تطلق سراحهم.

"وكان بمقدور المرأة الحرة أن تتزوج من عبد، وكان الأولاد يولدون أحراراً تبعًا للأم وهي ميزة كبيرة افتقدتها حضارات كثيرة" (**بورت** 1997: 72).

واللافت أيضاً أنّ الابنة التي ليس لها إخوة ذكور، فإنّها تحجب الميراث عن أقارب أبيها، فهناك نص تشريعي صريح: «**إذا توفي رجل ولم يخلّف أولاداً فابنته سوف تحصل على ميراثه**» (**عقراوي** 1978: 129).

وفي العهد الآشوري كانت المرأة تتحمل مسؤولية ديون زوجها بالتضامن، بينما كانت القوانين البابلية تسمح للمرأة بأن تأخذ منه تعهداً بأنّها ليست مسؤولة عن الديون المترتبة عليه قبل الزواج.

وفي الطلاق كان للمرأة حقوق تساوي قيمة المهر في حال كان طلاقاً بلا أسباب، بينما تغافلت القوانين الآشورية عن تحديد مقدار للمهر عند الطلاق. واللافت حقيقة هو تعدد أنواع الطلاق، فهناك الطلاق المتفق عليه، والطلاق التعسفي، والطلاق بسبب الخيانة، والطلاق بسبب الهجران أو المرض، ومع أنّ الرجل احتفظ بحق أعلى في الطلاق إلاّ أنّه، وفي الوقت ذاته، تمت حماية الزوجة، وخاصة في حالة الطلاق التعسفي من غير سبب مع وجود الأولاد، حيث يتم طرد الزوج من البيت وحرمانه من أملاكه.

فالقوانين السومرية والبابلية، وإن لم تمنع الرجل من طلاق زوجته التي له منها أولاد، إلاّ أنّها وضعت في طريقه بعض الصعوبات للموازنة بين إرادته ومسؤوليته في سبيل ضمان عيش زوجته المطلقة وأولادها، إذ تنص المادة التاسعة والخمسون من قانون أشنونا على أنّه «**إذا طلق رجل زوجته بعد أن ولدت منه أولاداً، وأخذ زوجة ثانية فسوف يطرد من بيته وتقطع علاقته بجميع ما يملك، وليذهب إلى من يؤويه**» (**عقراوي** 1978: 105).

«في حالة غياب الزوج لأكثر من خمس سنوات، تمنح الزوجة «لوحة الترمل» وتستطيع الزواج في بداية السنة السادسة، وإن عاد الزوج الأول وبرر غيابه يستطيع استعادتها على أن يقدم للزوج الثاني بديلة عن زوجته، وفي حال وقوع الزوج أسيراً لدى العدو تتربص الزوجة بنفسها عامين دون زواج، فإذا كانت من موظفات القصر فإنّه يقدم لها الطعام مقابل الخدمة، أما إن كانت امرأة من الشعب ولا عائل لها فتتقدم إلى المحكمة بالتماس ليخصص لها كوخ وقطعة أرض لإعالتها. وكانت الأرملة بعد موت الزوج تعيش مع أولادها، وكان عليهم إعالتها إن لم يكن قد ترك لها شيئاً في صك مكتوب، وإن كانت زوجة من زيجة ثانية ولم يكن لها أطفال فإنّ أبناءها من الزواج الأول هم الذين يعولونها، ولكن إن كان لها أطفال ولم يرد أولاد زوجها من الزواج الأول التكفل بها، فإنّها تقوم بخدمة أبنائها مقابل طعامها. وحين تتزوج الأرملة من زوج ثان، فإنّ كل ما يأتي به يصبح ملكاً لها إن أتى ليعيش في بيتها، أما إن كانت الأرملة هي التي تنتقل إلى بيت زوجها الثاني، فإنّها تفقد حقوقها فيما تملك مما أتت به لبيته» (**بورت** 1997: 291).

«في شريعة حمورابي مُنحت المرأة نصف أملاك زوجها من أجل العناية بأطفالها حتى البلوغ، وبالمقابل تغافلت القوانين الآشورية عن موضوع الأطفال بتاتاً وتركتها لمشيئة الأب وكأنّنا نرى مع تقدم العهد البابلي نحو نهايته ومع العهد الآشوري انزياحَاً في الحقوق المدنية للمرأة بشكل واضح» (**عقراوي** 1978: 113).

وكان يُنظر إلى الإجهاض بوصفه جريمةً تصل عقوبتها إلى الموت، حسبما ورد في قوانين حمورابي وقوانين الفترة الآشورية الوسطى، إذ إنّ عقوبة التسبب في موت امرأة حامل ازدادت تشدداً، ففي قوانين آشور الوسطى يجب أن يموت المعتدي نفسه، بينما في شريعة حمورابي يحكم على ابنته بالموت. أما التشريع الذي لا سابق له في شريعة حمورابي ويعكس، للمرة الأولى، الطبيعة السياسية في القوانين الآشورية الوسطى فيكمن في النص الذي يقول: «**إذا سببت المرأة الإجهاض لنفسها واتُّهمت وبُرهن ذلك، فإنّها تُخوزق ولا تدفن**» (**ليرنر** 237: 2013). ما يعكس بالتأكيد اعتبار حق التخلي عن الأبناء مُلكاً للزوج فقط، وليس للزوجة أن تقرر ذلك.

وفي مسألة لباس المرأة، ظهر الفرز الطبقي من خلال نوعية الثياب والمجوهرات والحلي، وتمتعت النساء من الطبقة الملكية بالرفاهية العالية التي ظهرت من خلال أدوات الزينة المذهبة والمطعمة باللازورد والتي عُثر عليها في القبور الملكية.

وأشار ديورانت «إلى أنّ المرأة السومرية الموسرة استخدمت الأساور والقلائد والخلاخيل والخواتم والأقراط كزينة» (**ديورانت، ج2:** 1988: 15).

ويتصل باللباس حجابُ المرأة، والذي ينتشر بشكل واسع في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، إذ إنّ قراءة الأسطورة القديمة بعين تأويلية تكشف اللثام، عنه وتسلط الضوء على تاريخه ومدلولات نشوئه واعتماده، فما حدث من «انقلاب ذكوري» على المرأة وهيمنة الرجل عليها اقتصادياً وجنسانياً، قاد إلى فرز طبقي للنساء، بحيث تمّ الربط بين الطبقة والخدمات الجنسية التي تقدمها المرأة (**Stol** 1995: 124).

وهذا ما ظهر بشكل واضح في التشريعات الآشورية التي قوننت الجنس للمرأة، بحيث ميّزت اجتماعياً ما بين المرأة الحرة والمرأة الجارية أو البغي، بواسطة غطاء الرأس.

وتنص إحدى مواد القانون الآشوري على أنّه «**يمنع على زوجات السادة والأرامل والنساء الآشوريات اللواتي يخرجن إلى الشارع كشف رؤوسهن، ....، إنّ محظية تخرج إلى الشارع مع سيدتها يجب أن تحجب نفسها، إنّ عاهرة مقدسة تزوجها رجل يجب أن تحجب نفسها في الشارع، ولكن واحدة لم يتزوجها رجل يجب ألا تحجب العاهرة نفسها، يجب أن يكون رأسها سافراً**» (**ليرنر** 264: 2013).

ويتابع النص التشريعي: "**إنّ الذي يرى عاهرة محجبة يجب أن يعتقلها، ويحضر شهوداً ويأخذها إلى محكمة القصر، يجب ألا يأخذوا مجوهراتها ولكن الذي اعتقلها يمكن أن يستولي على ملابسها، يجب أن يضربوها خمسين مرة بالعصا ويسكبوا القار على رأسها**» (**ليرنر**2013: 264).

إذاً، «كانت الحرة تخرج وهى ترتدي غطاءً للرأس، وكان ذلك أمراً إلزامياً لتمييز المرأة الحرة عن الجارية التي لم يكن لها الحق في وضع غطاء للرأس إلا إذا أراد زوجها رفعها لمرتبة الزوجة، ويقوم بوضع الغطاء على رأسها أمام خمسة أو ستة شهود قائلاً: «**هذه هي زوجتي**» (**بورت** 1997 **:** 291).

والغطاء للرأس، كما يتضح، يعبّر عن رمزية اجتماعية لتمييز المرأة الحرة عن الجارية، ولم يكن يحمل أي مضامين دينية، كما في الديانات التوحيدية اللاحقة، ولم يميز هذا القانون بين المرأة الحرة والأمَة، وحسب، وإنّما بين المتزوجة والعاهرة، ولم يكتف بذلك بل من يرى عاهرة تتحجب يجب أن يعتقلها ويحضر شهوداً ويسوقها إلى المحاكمة، وهو ما يجعل العاهرة إنسانة ذات مرتبة متدنية، ولا يحق للرجل أن يمارس معها نشاطاً ظاهرياً مجتمعياً، بل هي فقط للمتعة كأي سلعة، وهذا لا يزال في العصر الحالي حاضراً في تصنيفات مجتمعية باتت راسخة، على الرغم من التحرر الظاهري من العبودية.

«ومع هذا القانون الآشوري رقم 40 تولت الدولة السيطرة على الجنسانية الأنثوية، التي كانت قد تركت لأرباب الأسر والأفراد أو مجموعات القرابة، ومن سنة 1250 ق.م فصاعداً، من التحجيب العلني، إلى قوننة الدولة لتحديد النسل والإجهاض، وكانت السيطرة الجنسية على النساء سمة جوهرية للسلطة الأبوية" (**ليرنر** 2013 :273).

ب ـ على الصعيد الثقافي

«كانت الكتابة أهم ما خلّفه السومريون، ولقد كان من حسن الحظ أنّهم لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل، بل كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين، وكانوا في ذلك جد مهرة، فاحتفظوا بسجلات العقود والمشارطات والوثائق الرسمية، وسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع، وخلقوا من هذا كله حضارة لم يكن فيها القلم أقل قوة من السيف، وكان الكاتب إذا أتم ما يريد جفّف الطين في النار، أو عرّضه للشمس فجعله محفوظاً أبقى على الدهر من الورق، وكانت نشأة الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية» (**ديورانت، ج2** 1988: 34).

"وكان الكهنة يُعلّمون الناس العلوم ويلقنوهم الأساطير، وما من شك في أنّهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلاً إلى تعليمهم وإلى حكمهم والسيطرة عليهم، وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب، ويُعدُّون بعضهم للمهنة العليا، مهنة الكتابة» (**ديورانت، ج2** 1988: 31).

"وكان من اللافت في الحضارة السومرية تميُّز المرأة وتخصصها في مهنة الكتابة، إذ تشير بعض النصوص المسمارية إلى أنّ التعليم لم يكن مقتصراً على الذكور، بل شمل كذلك الإناث أيضاً، وكان بإمكان

بعضهن التعلم ليصبحن كاتبات متمرسات في ما بعد، بكل ما يعنيه ذلك من صعوبات أبرزها انخراط الإناث في سلك التعليم، ومشاركة الذكور في هذا المضمار بشكل واسع، بالإضافة إلى تكاليف الدراسة وأجورها الباهظة، وقد نالت بعض النسوة نصيبهن من التعليم أسوة بالرجال، كما تبين أنّ أعداد الكتبة في بلاد الرافدين كان كبيراً وهو ما يؤشر لحالة حضارية متطورة للمجتمع شكّلت حضوراً متميزاً في خارطة بلاد الرافدين القديمة» (**الجميلي** 2005: 89).

بيْد أنّ بعض الباحثين أشار إلى أنّه كانت هناك لهجة أساسية من لهجات السومرية تدعى (إيميسال)، وتعني لغة النساء، وهي لغة تتميز عن الشكل الشائع، وجرى تكرارها على شفاه النساء وتعتبر أكثر تناسباً معهن، وتكررت الإيميسال في الملاحم والصلوات وبعض التراتيل، فكانت تستخدم لكلام النساء والإلهات، وكذلك كلام عبيدهن الذين كانوا خصياناً في العادة (**ساكز** 2009: 118).

وذكرت م. ستول أنّ لهجة (إيميسال) استخدمت في النصوص الأدبية عند النساء، ومن قبل الرجال في الجنائز والرثاء (**Stol** 1995: 125).

«وهيّأت هذه الظروف لظهور «إنخيدوأنّا» (2300 - 2225 ق.م) (Enchedu-Anna) أول شاعرة في التاريخ وواحدة من أعظم شاعرات العالم القديم، وقد تولت هذه الكاتبة أرفع منصب ديني في الإمبراطورية وهو (الكاهنة العليا للإله سن في أور). فهي وليدة أول إمبراطورية في التاريخ (2334 - 2145 ق.م) وهي فترة وصفها الماجدي بأنّها (لا بابلية ولا آشورية) تميزت بأدبها الذي شكّل مفصلاً ما بين الأدب السومري والأدبين البابلي والآشوري، والشاعرة كانت تكتب معظم قصائدها باللغة السومرية التي تعتبرها بمثابة اللغة المقدسة (اللاتينية) وقد وصفها الكاتب وليام هالو بشكسبير الأدب السومري" (**الماجدي** 2013: 214-217).

«وكذلك ترد في نصوص هذا العصر إشارات إلى زوجة الملك (أور نمّو – حاكم سركا (Sirka) 2113 ق.م) التي ربَّما كانت كاتبة في أدب المراثي عندما كتبت مرثية لزوجها، وأقامت مناحة كبيرة على موته في المعركة؛ كذلك يشار إلى زوجة الملك (شولكي (Sulgi)) التي ربَّما كانت كاتبة أيضاً وهي التي ألّفت مقطوعة (هدهدة الطفل)؛ وورد ذكر الكاتبة (Nin-Sata-Prada) في النصوص وهي التي وردت الإشارة إليها بصفتها كاهنة للعالم السفلي، كما أنّ ابنة (سن - كاشد (Sin-Kašid)) حاكم مدينة الوركاء في حدود (1833 - 1865 ق.م) كانت كاتبة فقد قامت بإرسال رسالة إلى ملك لارسا (ريم - سن (Rim-Sin)) (1822 - 1763 ق.م)، تطلب فيها من الملك وجيشه الرحمة، وأنّ هذه الطريقة المهذبة في التعامل مع المواقف العسكرية الحرجة، أصبحت موضوعة دراسة الأجيال اللاحقة من الكتبة فيما بعد» (**الجميلي** 2005: 90).

وبقيت مهنة الكتابة من المهن المهمة والمتميزة في الحضارة البابلية والآشورية، لا سيما أنّ العصر البابلي كان عصر نشاط التأليف والترجمة والنسخ للتراث القديم.

في العصر البابلي جاء ذكر العديد من «الناسخات»، كما تطلق عليهن عقراوي، «من ضمن الموظفين التابعين إلى الدير في ما عرف بـ (Gagum-Cloister) وكانت معظم الناسخات كاهنات من صنف "ناديتو"، ومن هذه الناسخات:

إنانا ـ آمامو (Inanna-Amamu): ذكرت هذه الناسخة في عدد من النصوص التي تعود إلى زمن بنتاخون أيلا، وهو أحد حكام مدينة سبار، قبل أن يضمها ملاك سلالة بابل الأولى، وجاء آخر ذكر لها في زمن الملك (سومو - لا - ايل) (1880 1845- ق.م) وتذكر أحد هذه النصوص أنّ والد هذه الكاتبة (أبا - طابم (Abba Tabum)) كان كاتباً أيضاً.

شآت - آيا (Sat-Aja): ذكرت في عهد الحاكم ايميروم أولا، ثمَّ في زمن الملك سومو - لا - ايل أيضاً.

نن - آزو (Nin–Azu): ذكر اسم هذه الناسخة في زمن الملك سابيؤوم (1844- 1831 ق.م).

آمات - شمش (Amat–Samas): وردت الإشارة إليها من عهد الملك آبل - سن(Apil–Sin) (1830 - 1813 ق.م).

مانا (Mana) ذكرت من عهد الملك (سن - مبلّط) (1812 - 1793 ق.م).

آيا توم (Aiatum): ورد اسمها من عهد الملك سن - مبلط أيضاً.

آمات – مامُو (Amat-Mamu): خدمت هذه الناسخة لمدة تناهز 40 عاماً، إذ عاصرت حكم ثلاثة ملوك هم: حمورابي (1792-1750 ق.م) وسامسو - ايلونا (1749- 1712 ق.م) وآبي - ايشو (1711 -1684 ق.م).

وكذلك ورد ذكر اسم الكاتبة (آيا - كوزوب -ماتم) (Aja-Kuzub-Matin) في نص واحد يعود إلى عهد الملك سامو - ايلونا" (**عقراوي** 201: 1978).

واللافت أنّ الكاتبات النساء كنَّ متميزات بحيث أتت أسماؤهن من بين الموظفين المسؤولين عن أرزاق القصور، فهي مهنة مرموقة تعكس تميزاً للمرأة في اكتسابها الخبرة والتعليم والثقة لتعمل ضمن نطاق

القصور. وقد أشارت عقراوي إلى أنّ عدم السماح للكاهنة ناديتو بإنجاب الأولاد سمح لها بأن تأخذ وقتها في التعلم.

"كما وردت الإشارة إلى بعض من الكاتبات في نصوص ماري من دون ذكر أسمائهن، إذ جاءت صيغة الإشارة إليهن بـ (Sinnišat-Dub-Sar) أي النسوة الكاتبات، وكما هو الحال في مدينة سبار أيضاً، فإنّ الكاتبات كن يقمن بإنجاز تدوين وثائق النساء الأخريات في مجتمعهن، وجاء في النصوص المكتشفة من موقع شاغار بازار (Chagar Bazaar) ذكر لكاتبة تدعى (A-Bi Liburaش)، إذ أشير إلى هذه الكاتبة مع بعض الموظفين الذين استلموا الأرزاق من القصر الملكي في عهد (يسمح - ادد) (1780 - 1796 ق.م)، ومن الأسماء اللامعة للكاتبات، خلال هذه الفترة أيضاً، برز اسم الكاتبة (Ama-Dug-Ga)، إذ تردد اسمها في عدد من النصوص والرسائل الاقتصادية من زمن الملك (شمشي - ادد) والملك (زمريلم) ولذا يحتمل أن تكون هذه الكاتبة قد عاصرت حكم هذين الملكين، وعاشت القسم الأول من حياتها في مدينة آشور خلال عهد شمشي ـ ادد ثمَّ انتقلت إلى خدمة الملك زمريلم في ماري بعد ذلك فقد عرفت هذه الكاتبة بأختامها التي تحمل اسمها، كما ورد ما يفيد أنّ جناح بيتان، وهو الجناح الخاص بحريم الملك، يُعدّ من أهم أجنحة القصور الملكية الآشورية كان يضم من بين الموظفين المهمين فيها كاتبة الملكة لتغطية مراسلاتها وتنظيم تدوين الوثائق الخاصة بأملاكها. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أنّ عدداً من الكاتبات ساهمن في كتابة النصوص المعجمية، كما ظهرت بعض الكاتبات مثل زملائها الكتبة شاهدات في العقود، إذ كن يشهدن على بعض العقود وخاصة تلك التي يكتبنها بأنفسهن" (انظر **الجميلي** 2005: 89-92).

وعلى الصعيد الفني، مارست المرأة العزف والغناء، فالمعروف أنّ الموسيقى وآلات الطرب هي إحدى إبداعات وادي الرافدين، فقد استعمل العراقيون القدامى الموسيقى للتعبير عن مشاعرهم في مجالات مختلفة، منها الاحتفالات الدينية والدنيوية. وشاركت المرأة في هذا المجال ابتداءً من عصر فجر السلالات، وحتى أواخر الأدوار الحضارية القديمة في وادي الرافدين.

وعكست الأختام واللقى الأثرية مشاركة المرأة في الأدب وفي العزف والغناء على الآلات في مختلف عصور حضارات وادي الرافدين، وكانت مهنة العزف، وخاصة لعازفي المعابد، تعد من المهن المرموقة، وإلا لما ذُكر تميز الملك شولكي ثاني ملوك سلالة أور الثالثة بإجادته العزف والغناء وهو الملك.

«كان في المجتمع العراقي القديم صنفان من الموسيقيين، صنف تابع إلى المعابد لإحياء الحفلات الدينية، وهم عبارة عن طبقة خاصة من الكهّان مدربين، ومنهم كاهنات يعزفن وينشدن أيضاً، أما الصنف الآخر فهم من الموسيقيين التابعين للقصور الملكية، ومعظمهم من العبيد والخدم» (**عقراوي** 1978: 205).

وتذكر عقراوي العديد من القطع الآثارية التي نقشت عليها المرأة تعزف وهي عارية أحياناً، وعلى آلات مختلفة منها آلة الكنارة. وتذكر المغنية أور نانشه التي كانت من أشهر النساء الموسيقيات في عصر فجر السلالات السومرية الثالث. وتظهر في تمثالها المكتشف في مدينة مرتدية سروالاً بشعرها المجعد المتهدل على كتفيها وظهرها، وكانت ترتدي السروال لأنّها كانت ترقص أثناء الغناء. وتذكر كذلك حفيدة العاهل الأكدي المعروف نرام سن (2254-2230 ق.م) التي تعزف على الكنارة في حضرة الإله سن إله القمر في معبده الرئيس في أور (انظر **عقراوي** 1978: 206).

ج - على الصعيد الاقتصادي

كانت المرأة في تاريخ العراق القديم تتمتع بقسط كبير من الحرية الشخصية، وكان لها حقوق وامتيازات أقرها القانون والمجتمع، وقد أشرنا من قبلُ، إلى كون البائنة التي كان يقدمها الأب لابنته عند زواجها أو عند تقديمها لتكون كاهنة هي دلالة على استقلالية مادية ساعدتها على الاحتفاظ بمكانة متميزة وحضور قوي في التعاملات الاقتصادية من بيع وشراء وحق التملك، ولا يخفى أنّ المرأة بقيت تحتفظ بتميز في المكانة الاقتصادية مما ورثته من العصور السابقة والتي كانت فيها المنتجة الأولى في عملية الثورة الزراعية، وصاحبة الأملاك من عائدات المعبد كواحدة من أهم العاملين في الحقل الديني.

وتشير عقراوي إلى كون «المرأة مارست حرية البيع والشراء دون تأثير أو تدخل كبير من الأب أو الزوج في معاملاتها الخاصة، ومنحت كذلك قدراً كبيراً من الحرية الاجتماعية؛ فكان للنساء الحق المطلق والقدرة الكاملة على ممارسة الحياة الاجتماعية، وهناك العديد من النصوص التي تشير إلى أنّ النساء السومريات كنَّ يمتلكن العبيد والإماء ومساحات من الأراضي وعدداً من الماشية وكميات من النقود، وكان للزوجة في ذلك العصر حق التصرف بأموالها المنقولة وغير المنقولة، فلها الحق في شراء ما تريد وبيع ما يعود لها، وكان للمرأة حق رفع الدعاوى والظهور كشاهدة في المحاكم وممارسة التجارة، كما كان لها أختام خاصة تستعملها في المعاملات» (**عقراوي** 1978: 34).

لقد أدت المرأة دوراً مهماً من خلال حكمها كملكة أو أميرة ومن خلال منصبها ككاهنة، وحفلت الآثار بمراسلات تحمل أسماء ملكات وأختامهن، ويشير العديد منها إلى امتلاكهن العبيد والأراضي والتجارة، وحتى تجارة الخمور.

وتسلط عقراوي الضوء على الملكة «شيبتو ابنة بارملم زوجة زمريلم التي زوجها أبوها إليه بعد أن استطاع بمساعدته استرجاع عرشه، وكانت متميزة في الحكم والإدارة، وخاصة في خلافة زوجها وهو يدير شؤون الحرب. أما الأميرة إيلتاني فهي كاهنة من صنف ناديتوم، وكانت تملك مساحات كبيرة من الحقول، بل وحتى أنّها كانت تستأجر حقولاً مجاورة وتقوم باستغلالها» (**عقراوي** 1978: 247).

«وتمتعت الزوجة بشخصية مدنية أكثر اتساعاً خاصة في العهد السرجوني، مثلما ورد في النصوص عن «أمات سولا» المرأة التي تملّكت بيتاً بالاشتراك مع رجلين وباعته دون تدخل من الزوج، وكانت تشتري الجواري واقترضت ورهنت، كما كان من حقها شراء وبيع العبيد والظهور بين المتقاضين» (**بورت** 1997: 291). وهذا يدل على كونها شخصية اعتبارية لها مساحة من الاستقلال المادي، ويعكس كذلك طبيعة الممارسات التجارية التي تمكنت المرأة من مباشرتها بنفسها آنذاك.

أما على صعيد ممارسة الأعمال، فقد توزعت الأعمال التي مارستها المرأة على نوعين: الأول يتعلق بواجباتها المنزلية كأم وزوجة، والآخر ما كانت تمارسه خارج نطاق العائلة.

«وتبدأ واجبات المرأة في البيت منذ زواجها وحملها، وكانت الولادة ولا تزال من أقسى التجارب التي تتعرض لها المرأة في حياتها، وظهر اهتمام سكان وادي الرافدين بالمرأة الحامل من عدد من التعاويذ ونصوص الفأل، فقد كان المثل السومري يقول بهذا الخصوص: «**الرجل المريض لا يقلق، أما المرأة التي في المخاض فهي المريضة حقاً**»» (**عقراوي** 155: 1978). إنّ حاجة المجتمع إلى الأبناء كان ينعكس بشكل مباشر على قوانين الحماية للمرأة الحامل وحمايتها من طلاق تعسفي من غير سبب والذي كان بمثابة جريمة يعاقب عليها الزوج.

أما المهن التي مارستها المرأة العراقية خارج نطاق العائلة فكان منها غزل الصوف ونسجه، وطحن الحبوب وتربية الحيوانات، كما قام قسم من النسوة بمساعدة الرجل في الحقل. ومن اللافت، كما سلف، أنّ أجرة المرأة التي كانت تتقاضاها من تأدية مثل هذه الأعمال كانت مساوية لأجرة الرجل، وهو حق لم تستطع المرأة المعاصرة نيله إلا بعد صراع مرير.

وسنّت تلك الحضارة قوانينَ لحماية المرأة، وهيأت لها مكاناً بارزاً وأعطتها مكانة مرموقة في المجتمع السومري، ففي مدينة لجش كان منهن كاهنات ومنهن من استلمن مناصب إدارية وتجارية ودينية، وخير مثال المصلح الاجتماعي (أوركاجينا) الذي أبرز مكانة المرأة، وزوجته (شاشا) هي التي كانت تشرف على مراكز تجارية ودينية وهي التي أقامت مراسيم دفن عظيمة لـ (بارنمتارا (Barnamtarras)) زوجة الحاكم السابق (لوكالاندا) حضرها عدد كبير من النساء والرجال، مما يشير إلى سموها وعظمة مركزها الاجتماعي (**عقراوي** 1978: حواشي 33).

"وكانت حياة نساء الطبقات العليا مترفة، ففي قبر الملكة (شبو–آد) عثر على دبابيس من الذهب رؤوسها من اللازورد، وخواتم من الذهب المرصع باللازورد وأدوات تجميل" (**ديورانت، ج2** 1988: 33). فضلاً عن أنّ العبيد كانوا يدفنون معها أحياء عند رحيلها.

ح - على الصعيد السياسي

أسهمت المرأة في الحياة السياسية والإدارية، وحكمت لمدة طويلة، كما تقلدت عدد من النسوة في وادي الرافدين مركز (حاكم مقاطعة)، وكان أغلب هؤلاء من الأميرات زوجات أو أخوات الملوك، وكانت الحاكمة تسيطر عادة على عدد من المدن والقرى وتحكم باسم الملك. وحكمت بعض الملكات بدل أزواجهن أو أبنائهن عند ذهابهم إلى الحروب أو عندما كانوا صغار السن. وجرى التنويه سابقاً إلى أنّ التوسع وامتداد النفوذ قد تم بعملية تبادل النساء كما أشار إليه ليفي شتراوس، فالنساء كنَّ قادرات على التلاؤم مع القبائل الجديدة اللواتي ينتقلن للعيش فيها ويستطعن إنجاب الأبناء وجَعْل ولائهن للقبيلة التي تنحدر منها الأم.

«في العهد السابق للسرجونية، كانت توجد إلى جانب الأمير زوجة لها أملاك واسعة تديرها بنفسها، ولها قصرها الخاص وتشترك في تصريف شؤون الدولة» (**بورت** 1997: 70).

«وكان للمرأة دور فعال في قيادة الدولة، ومن هذه النساء الأميرة السومرية (ديم باندا) زوجة الحاكم السومري (انسيتارزي) حاكم لجش (2384 ق.م) والأميرة (بارنمتارا) زوجة لوكالاندا، والأميرة شاشا زوجة أوروكاجينا، حيث قامت هؤلاء النسوة بالإشراف على إدارة الأمور التجارية الواسعة النطاق وتصريفها في دويلة لجش، وقد كانت (ديم باندا) تترأس الاحتفالات الدينية التي تقام في كرسو، وإنّ هؤلاء النسوة كنّ يحافظن على مراكزهن المقدسة حتى بعد زوال حكم أزواجهن. ويعطينا التاريخ صورة مشرفة عن الملكة (كوبابا) التي حكمت على عرش مدينة كيش (2420 ق.م)، وحكمت لمدة 100 عام[4]، وأعطت هذه الملكة دوراً فعالاً لمملكة كيش، وكانت تحظى بشعبية كبيرة من قبل سكان المملكة لإدارتها الناجحة لسياسة الدولة الداخلية والخارجية» (**عقراوي** 1978: 202).

ومن النساء الشهيرات في العراق القديم الملكة (بو-أبي) زوجة الملك آبار- كي أحد ملوك سلالة آور الأولى سنة (2650 ق.م). اشتهرت هذه السيدة السومرية بمقبرتها المكتشفة في أور في أواخر العشرينات من القرن الماضي والشهيرة بزينتها وأثاثها الملكي من الحلي والأحجار الكريمة وكذلك الضحايا البشرية التي رافقتها إلى مقبرتها والمؤلفة من حاشيتها وخدمها وحرسها بألبستهم الكاملة وأسلحتهم وعرباتهم وعددهم تسعة وخمسون شخصاً. وقد تكون شبعاد وزوجها أبار- كي من ضحايا طقوس وشعائر الزواج المقدس الذي كان يمارس سنوياً في مرحلة مبكرة من التاريخ السومري ليعم الرخاء والخصب في البلاد (انظر **عقراوي:** 1978 216-217).

"أما في الإمبراطورية الآكدية ومؤسسها الملك سرجون الآكدي (2371 - 2200 ق.م)، فقد كان للمرأة أيضاً دور فاعل في إرساء هذه الإمبراطورية وسبل نجاحها، فقد قام الملك الآكدي سرجون ببسط نفوذه

4 "هناك اختلاف على سني حكم هذه الملكة، فبالرغم من أنّ جداول الملوك تدعي بأنّها حكمت مئة سنة إلا أنّ الإثباتات التاريخية تشير إلى أنّها حكمت ما يقارب ثلاثين عاماً» (**عقراوي** 1978: 202).

على المدن السومرية الشهيرة أور والوركاء بواسطة ابنته الكاهنة (**إنخيدوأنّا**) التي كانت تتمتع بأساليب دبلوماسية وتفاوضية لقيادة الدولة. واسم (إنخيدو أنّا) اسم سومري ومعناه (الربة زينة السماء) وقد تسلمت منصب كاهنة عظمى للإله – القمر ننّا في مدينة أور الجنوبية الناطقة بالسومرية، وكان هذا منصباً مهيباً يعطي حامله نفوذاً عظيماً على المدينة وسلطات المعبد. وقد نصب حفيد سرجون نرام – سين ابنته كاهنة عظمى في أور» (**ساكز** 2009: 108).

"وعرف العالم الكلاسيكي وكتاب اليونان الملكة الآشورية **سومو- رامات** (محبوبة العالم) باسم **سميرأميس** وكانت زوجة للعاهل الآشوري شمشي- أدد الخامس (822 - 811 ق.م) الذي حكم الإمبراطورية الآشورية من عاصمته نمرود (كالح). وعند وفاته كان ابنه أدد - نراري الثالث (811 - 783ق.م) قاصراً لم يبلغ سن الرشد، كما سبق ذكره، فتولت السلطة نيابة عنه والدته سمو- رامات ولمدة خمس سنوات. قلدت سمو- رامات الملوك الآشوريين العظام بإقامة مسلّة لشخصها تخلد ذكراها في ساحة المسلات في معبد الإله آشور في العاصمة المقدسة آشور (قلعة شرقاط) التي اكتشفتها بعثة التنقيب الألمانية في مطلع القرن العشرين وبرئاسة المنقب والتر أندريه جاء فيها:

«مسلة سومورامات ملكة (حرفياً: سيدة القصر) شمشي أدد، ملك الكون، ملك بلاد آشور، والدة أدد - نراري، ملك الكون، ملك آشور، كنة شلمنصر، ملك الجهات الأربع» (**عقراوي** 1978: 252).

«أطلق عليها اسم سمورامات- محبوبة الحمام (بالآرامي شاميرام) وهي ذاتها الملكة الأسطورية الجميلة ونسبت إليها أعمال فتوحات وبناء (منها بناء الجنائن المعلقة خطأ بالطبع) واشتهرت بحدة شهوتها وجبروتها وقسوتها، وصارت رمزاً وعنواناً لحضارات وادي الرافدين، وأشهر أسطورة نسجت حولها هي أنّها ابنة آلهة، وقد عبدت في عسقلان، نصفها سمكة والنصف الآخر حمامة، وقد تخلت عنها الآلهة فأخذها طير ورباها وعثر عليها رعاة الملك وتولى تربيتها ورآها حاكم نينوى (أونيس) فأحبها وتزوجها...إلخ، وهذه الرواية الأسطورية وردت عن هيروديتس الذي استقى معلوماته عن كهنة بابل، وربما أنّها أميرة بابلية تزوجها الملك الآشوري "شمشي أدد" فبالغوا في وصفها ووصف شهرتها كونها "كنة شلمنصر العظيم" وزوجة "شمشي أدد" الذي وحّد آشور من جديد» (**باقر، ج1** 2009: 185).

«وهناك، علاوة على ذلك، **زاكوتو** (نقية) التي تنتمي إلى إحدى القبائل السامية الغربية من بلاد آشور كانت الزوجة المحبوبة والمفضلة لدى العاهل الآشوري سنحاريب (705 - 681 ق.م) وقد أطلق عليها زوجها اسمها الآشوري (زاكوتو) بعد الزواج حيث كانت «سرية» عنده. ولم تكن السيدة نقية زوجة ملك اعتيادية ترضى بحياة القصور المترفة، بل استطاعت بدهائها وذكائها أن تساهم في حكم الإمبراطورية إلى جانب زوجها. وكان لها نفوذ كبير في أرجاء البلاد، وتمكنت نقية بحنكتها أن تجعل من ابنها أسرحدون (680-669 ق.م) ولياً للعرش بالرغم من أنّه لم يكن الابن البكر لسنحاريب، ومن المعروف بأنّ سنحاريب

قام بتدمير مدينة بابل عندما سلط عليها مياه النهر، وهدّم معظم معابدها وقصورها، ونقل تمثال مردوخ إلى مدينة آشور، ولذلك فقد أخذت زاكوتو على عاتقها مهمة بناء بابل مجدداً، فقامت بإنجاز بناء معظم المعابد والقصور ومشاريع الري المهمة، وأخيراً قامت بإرجاع تمثال الإله مردوخ إلى معبده الشهير إيساكلا (Esagela) في مدينة بابل" (**عقراوي** 1978: 257).

«وتعتبر الملكة آشور – شرت زوجة الملك الآشوري آشوربانيبال (668 - 631 ق.م) من النسوة القلائل اللواتي صُوّرن على المنحوتات الآشورية، أما والدة الملك **نبونهيد** (539 - 555 ق.م) أدد - كوبي (Adad-Guppi) فقد خدمت الإله سن، ورعت معبده، وقامت بالكثير من الأعمال الصالحة، وأقام لها ابنها مسلتين تعدّدان أعمالها وترويان طقوس ومراسيم دفنها ومقدار الأسى والحزن الذي عمّ البلاد (حزناً على رحيلها)" (**عقراوي** 1978: 264).

لائحة المراجع:

الجميلي، عامر عبد الله: **الكـاتـب في بلاد الرافدين القديمة**، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (2005).

الربيعو، علي تركي: **العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية**، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء (1995).

باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج1، دار الوراق للنشر المحدودة (2009).

بورت، ل. ديلا: **بلاد ما بين النهرين**، ترجمة محرم كمال، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1997).

ديورانت، وايريل، دل: **قصة الحضارة، نشأة الحضارة**، ترجمة د. زكي نجيب محمود، المجلد الأول، دار الجيل، بيروت (1988).

ساكز، هـ .و.ف: **البابليون**، ترجمة سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي)2009).

ستون، مارلين: **يوم كان الرب أنثى**، ترجمة حنا عبود، الأهالي للطباعة والنشر، (1998).

السواح، فراس: **دين الإنسان**، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط4، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق (2002).

عقراوي، ثلماستيان: **المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين**، وزارة الثقافة والفنون، بغداد (1978).

ليرنر، غيردا: **نشأة النظام الأبوي**، ترجمة أسامة إسبر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت (2013).

الماجدي، خزعل: **كتاب إنكي، الأدب في وادي الرافدين**، ج1، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء (2013).

مجموعة مؤلفين، ماكلين وسيدلر..: **شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم**، الفصل الأول، مقارنة القوانين، ترجمة أسامة سراس، اختيار النصوص والإشراف على الترجمة فراس السواح، ط2، دار علاء الدين، دمشق (1993).

M. Stol, *Women in Mesopotamia*, Brill, London, (1995).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016